عنقاء الجزيرة العربية

سوق عكاظ

ⓒ المحترف السعودي، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
سحاب، فيكتور
سوق عكاظ: عنقاء الجزيرة العربية. / فيكتور سحاب-
جدة، ١٤٣١ هـ
١٩٢ ص، ٢١ x ٢٢,٥ سم

سوق عكاظ: عنقاء الجزيرة العربية
حقوق النشر 2011 لـ «دار المحترف السعودي للنشر والتوزيع»
جميع الحقوق محفوظة، ويحظر نقل أي جزء من هذه المطبوعة أو خزنه في أي من أجهزة حفظ واسترجاع المعلومات وبأية وسيلة بدون إذن مسبق من الناشر.

للمعلومات الرجاء الاتصال بدار المحترف السعودي للنشر والتوزيع على العنوان التالي:
المحترف السعودي، المركز السعودي للأعمال
طريق المدينة، 12950 جدة 21483
المملكة العربية السعودية
ت: 1555 651 2 966 00
ف: 9939 651 2 966 00

info@mohtarafbooks.com
www.mohtaraf.com
www.mohtarafbooks.com

جميع الصور الواردة في هذا الكتاب قد تمّ نشرها بمعرفةٍ ورضا مسبقين لكل الأفراد المعنيين. منتِج الكتاب، ودار النشر الخاصة به، ومطبعته، جميعها لا تتحمّل مسؤولية أيّ خرق لحقوق النشر أو غيرها من الخروقات القانونية التي قد يتعرّض لها. لم تُوفّر أيّ جهود في التأكّد من صحة المعلومات والأسماء الواردة. في حال تواجدت أيّ أخطاء أو هفوات، يكون من دواعي سرور دار المحترف السعودي للنشر والتوزيع أن يُدخِل المعلومات أو يصحّحها في أي طبعات لاحقة.

حرف عكاظ: كميل حوا
التنضيد: Souk Okaz Bold
Helvetica Neue LT Arabic Roman, Bold
Axt Marwan Light

تصميم المحترف السعودي:
يارا خوري

طبع في مطابع السروات، جدة، المملكة العربية السعودية
الطبعة الأولى في 2011

المادة العلمية والإشراف العام: **امانة سوق عكاظ**

عنقاء الجزيرة العربية

سقوط عكاظ

دار المحترف السعودي للنشر والتوزيع

هــذا الكتاب تعريف بســوق عُكاظ، التي أحياها العهد الســعودي الميمون، برعاية خادم الحرمين الشــريفين الملك عبد الله بن عبد العزيــز يحفظــه الله، وافتتحهــا نيابة عنه صاحب الســمو الملكي الأمير خالد الفيصل، أمير منطقة مكة المكرّمة، سنة ١٤٢٨هـ.

ويلخص الكتاب قصة السوق قديماً، منذ أن نشأت قبل الإسلام، حتى توقفها سنة ١٢٩ للهجرة، وقصتها حديثاً بعد أن أعيد اكتشاف وتحديد موقعها الجغرافي التاريخي في العهد السعودي، حيث تم إحياؤها بعد حوالي ١٣٠٠ سنة، وعادت إلى مجدها وسابق عهدها.

وقد وفرت أمانة ســوق عــكاظ المادة العلمية للكتاب وأشــرفت علــى العمل الــذي تولت شــركة المحترَف الســعودي إعداده في ضوء الكتب والدراسات التي تناولت هذا الموضوع.

شكر

عكاظ الماضي ..عكاظ المستقبل*

سوق عكاظ سوقاً ثقافياً وتجارياً وفكرياً كذلك. الآن يعود سوق عـكاظ ولكن لا يجب أن يكون فقط لمحـاكاة الماضي. وانما لا بـد أن نطرح فيه النظر إلى المسـتقبل ومحاكاة القادم. سـوق عكاظ، في الجاهلية وفي صدر الإسـلام كان يقدم آنية اللحظة وآنيـة الفكر وآنية الثقافة وآنية التجـارة. نحن يجب أن نعيد هذا المفهوم ونضيف إليه أن يقدم لنا آمالنا المستقبلية.

خالد الفيصل

*مـن الكلمة التـي ألقاها سـمو الأمير خالد الفيصـل للترحيـب بضيوف سـوق عكاظ ـ الدورة الرابعة ٢٠١٠م

مقدمة

اشـتُهرت سـوق عُـكاظ، بأنهـا ملتقـى أدبي يتبـارى فيه الشـعراء، فصار كل اجتماع على الشـعر العربي، يسـمَّى عُكاظاً.

لكن عُكاظاً كانت سوقاً للبيع والشراء، وهذه شهرتها الثانية بعـد ملتقى الشـعر. غير أن أثرها لم يبـقَ في ذاكرة الناس في المرتبة التي بقيت للشعر وعلاقته بعُكاظ.

وأقـل من ذلك ما علق في الذاكرة عـن حروب الفِجار التي كانت سوق عُكاظ ميداناً لها. فالذين يذكرون هذه الحروب، ويرهنـون ذكراهـا بالسـوق قليـل. وأقل القليـل من يرى حقيقة البعد الاسـتراتيجي الذي أشـعل هذه الحروب، في الصراع بين قبائل العرب، وبين بيزنطة والساسـانيين قبل الإسـلام، من أجل الاسـتيلاء على خطوط التجارة الدولية التي سيّرتها قريش، في مشروعها العربي الخالص.

نعـم، لم تكن عُـكاظ تعني كل هذا فقط، بـل كانت فوق كل مـا سـبق ملتقى العـرب الذي توحّدت فيـه اللهجات، وائتلفت القلوب مع المصالح، وعُقدت العهود والأحلاف.

سـوق عُكاظ ملتقى العرب، لا يلتقون فيها جسـداً ومالاً وتجـارةً فقط، بل روحـاً وأدباً ولغةً، وتوحداً وعيشاً واجتماعاً.
وعُـكاظ اليـوم، حاجة للعرب والمسـلمين. وليس إحياؤها مهرجان شعر وحسب، لكنها رؤية وحلم أخذ يتحقق. والمسار طويل.

* * *

حيث يحتشد الكلام، تعوّد الناس الاختصار.

في الأزمنة القديمة قالوا: في برج بابل، ويقع جنوب بغداد، كثر الـكلام وتعدّدت اللغات، فصار الاسـم المختصَـر عنواناً لزحمة الكلمات بكل لغة ولسـان، من دون أن تكون لهذه الزحمة فائدة معلومة أو وظيفة مجدية في الاتصال بين الناس.

لقد احتشـد الكلام مرة عند العرب، وازدحم المتكلمون، فسمَّوا المـكان: سـوق عُـكاظ، لكنه كان أجمـل الـكلام وأبلغه. هناك وُلدت المعلَّقات، أخلد ما في الشعر الذي كتبه بشر.

عُكاظ إذن مختلفة.

كانت بابل عنواناً للغو واللغط وتبلبل الحديث، ذلك أن الأسطورة القديمة تروي أن الناس في البرج تكلموا لغات كثيرة، فلم يفهم بعضهـم بعضاً، وكانت بلبلة. وحين نقـول اليوم: اختلط الحابل بالنابـل، للدلالة علـى الفوضـى العارمة والضياع فـي الزحام، فالرمـز الأقدم لهذه الحال هي بابل، وإن كان فيها رمز آخر، لكنه جميل، وهو الحدائق المعلقة.

عُكاظ كانت شيئاً آخر. كانت ملتقى للتعارف بين القبائل، وتبادل السـلع والمنافع، واختبار الشـعراء منهم، في أول مهرجان شعر فـي تاريخ البشـر. وليس غريباً أن تُولَد هناك المعلقات السـبع التي عُلِّقت على أسـتار الكعبـة، لتكون كنزاً لا يضاهَى من كنوز

البشــرية، لا فــي ســبقها التاريخي فقط، بل في خلــود معانيها وسمو أدائها الفني الرفيع. وليس غريباً إذن أن يقول لُوِي أراجون، وهو أحد أكبر شــعراء الغرب في القرن الميلادي العشرين: «لعل أعظم ما كتب البشر من شعر، الشعر العربي الجاهلي». لقد وُلد أرفع هذا الشعر في عُكاظ.

وشغلت سوق عُكاظ الناس ما زاد على ١٥٠٠ سنة، ولا تزال. هذا الكتاب اســتعراض ســريع لتاريخ هذا الموقــع الفريد، الذي شهد مشــاهد، وروى تواريخ، واحتضن أحد أسمى فنون البشر: الشــعر. وهو يروي شيئاً من قصة سوق عُكاظ، وكيف أسهمت فــي توحيــد لهجــات قبائــل العــرب قبيل نــزول القــرآن الكريم بالفصحى القرشية، وما كتبه بعض القدامى والمعاصرين فيها، ويختــار أجمل الشــعر الذي قالــه القدماء فيها والذي اســتوحاه شعراؤنا المعاصرون من هذه السوق الفريدة.

محتويات

14

مقدمة

الفصل الأول
عُكاظ في التاريخ والتجارة
١٢

الفصل الثاني
عُكاظ المرجل اللغوي الكبير
٢٦

الفصل الثالث
الشعر في عُكاظ: المعلقات وأصحابها
٤٠

الفصل الرابع
عُكاظ في الشعر
٦٢

الفصل الخامس
زيارة سوق عُكاظ
٧٦

الفصل السادس
كتبوا عن عُكاظ
١٠٢

الفصل السابع
عنقاء الجزيرة العربية
تُبعث من رمادها
١١٨

الخاتمة
١٢١

الفصل الأول

مكة

في التاريخ والتجارة

16

الفصل الأول
مكانة في التاريخ والتجارة

كانــت عُــكاظ كبــرى أســواق العرب فــي الجاهليــة وفجر الإسلام، وظلت تقوم كل عام حتى سنة ١٢٩ بعد الهجرة، حين دمرتها فتنة الحرورية. وكانت تعد مع ســوقي المِجنّة وذي المجــاز، أســواقاً لمكة وقريش، وهي أقرب أســواق القبائــل العربية إليها. فهي تقع إلى الجنوب الشــرقي من مكة المكرمة بين نخلة والطائف. وكانت الأســواق الثلاث تقام في الأشهر الحرم، وسوق عُكاظ في ذي القعدة قبيل بدء موسم الحج.

كان موقع الســوق في ديار هــوازن، التي كان منها حلفاء لمملكــة الحيــرة في جنوب العــراق، ومنهم مــن كان من حلفاء قريش.

عُكاظ المعنى والمكان والزمان

تقــول معاجــم اللغة: عكظه أي حبســه وعركه ودلكه وقهــره، ورد عليه فخره وصرفه ومطلــه. وعكظ به افتخر، وتعكــظ القوم اجتمعوا وازدحمــوا. وتعاكظ القوم تفاخروا وتعاركوا وتجادلوا.

بطبيعــة الحال، أخذ الإخباريون العرب يســتمدون من

هذه المعاني اللغوية سبباً لتسمية السوق. وكان أقرب ما يشـير إلى وظيفة هذه السوق، أنها كانت محلاً يقول فيه الشـعراء شـعر الفخر بقبائلهم، أو تزدحم فيه جموع غفيرة في موعد مضروب للبيع والشـراء. ويـرى ياقوت الحموي الجغرافـي العربـي الشـهير، أن العارفيـن لـم يتفقوا على سبب التسمية، فظلت موضع تكهن وتقدير.

وإذا اعتمدنـا قول الجغرافيين العـرب ومن كتبوا في موضوع سـوق عكاظ فإن السـوق تقع على مسافة ثلاثة أيـام مـن مكة المكرمـة، ناحيـة الجنوب الشـرقي، وعلى مسـافة يوم مـن الطائف، ناحية الشـمال الشـرقي. وإذا رسـمنا دائرتين، واحدة مركزها مكة المكرمة وشعاعها ١٢٠ كيلومتراً (مسـير اليوم يقرب في الإجمال من ٤٠ كيلومتراً) والثانيـة مركزهـا الطائف وشـعاعها ٤٠ كيلومتـراً، يصبح تعيين مكان السوق دقيقاً نسبياً.

فالسوق كانت تقام في مكان فسيح جداً، يتيح تنقلها من عام إلى آخر في سهل معروف موقعه. وكانت مساحة السوق تتسـع حيناً وتضمر حيناً آخر في داخل هذا السهل. وقـد نقل ياقـوت عن الأصمعي والواقـدي، أن نخيلا كان في المكان، المسمى الأثيداء.

وفيهـا نشـبت حـروب الفِجـار، بيـن ٥٨٥ و٥٩٠م، فبدأت حين كان النبي محمد صلى الله عليه وسـلم، في

موقع سوق عكاظ

الخامسة عشرة من العمر قبل البعثة النبوية. وكان سبب هذه الحروب، محاولة الحيرة السيطرة على خط التجارة بين اليمن والعراق، وإقصاء قريش عن هذه التجارة. وقد انتصر القرشيون وحلفاؤهم في تلك الحروب، واحتفظوا بخط تجارتهم الدولية، التي سارت بالقوافل من اليمن إلى بلاد الشام، وفق رحلة الشتاء والصيف التي ذكرها الله عز وجل في كتابه العزيز، في سورة قريش، إذ قال، جَلّ من قائل: (لإيلافِ قريشٍ* إيلافِهم رحلةَ الشتاءِ والصّيف* فليعبدوا ربّ هذا البيتِ* الذي أطعمهُم من جوعٍ وآمنَهم من خوف).

وقد شهدت السوق تجارة بيع وشراء وعقد صفقات، بين مختلف القبائل. لكنها اشتهرت كذلك بالتباري في الشعر، أمام حكّام يقرّون القصيدة الفائزة. وقد عُلِّقت سبع من أفضل القصائد الفائزة على أستار الكعبة المشرفة، فسُميت المعلقات.

لقد تركت لنا روايات الإخباريين العرب أوفر المعلومات عن السوق، إذ كانت محلاً لاختبار حنكة قريش، في قيادة مشروع التجارة الذي جمعت له قبائل العرب حول قوافلها.

كانت قريش تسيطر على عدد كبير من الأسواق في شبه الجزيرة العربية، في نظام أحلاف واسع، ضمن لها تسيير قوافلها بسلام، في الأشهر الحرم، وفي غيرها

كذلك. وكان نظام الإيلاف يخيّر القبيلة، أن تتقاضى رسوم مرور لقاء حماية قافلة القرشيين، أو أن تسيّر إبلها مع مكة في تجارتها. وكانت فائدة للقبائل في الحالين، استحقت أن تلتف هذه القبائل العربية حول المشروع التجاري الكبير، بعدما كانت تتصارع وتتغازى.

سيطرت مكة على التجارة عبر دومة الجندل (الجوف) في شمال المملكة، لأنها عقدة المواصلات بين مكة والحيرة من جهة، وبين الخليج وبصرى الشام من جهة أخرى، وكانت قوافلها آمنة بفضل أحلاف هناك. وبلغ من نفوذها كذلك أن سيطرت على أسواق بصرى وأذرعات في بادية الشام. وسيطرت أيضاً على المُشقّر، وهي من أعظم أسواق الخليج العربي، إذ كانت تستمر شهراً كاملا. وسيطرت على الرابية، وهي سوق حضرموت مصدر أفضل اللبان، بفضل تحالفها مع بني آكل المرار أقوى القبائل هناك.

أما عُكاظ، وهي الأقرب في كبرى الأسواق إلى مكة المكرمة، فكانت في البداية، لقبيلة هوازن المرهوبة الجانب، ولم يكن يسهل على قريش إدراجها بلا قيد ولا شرط في نظام تجارتها. لكن شبكة عهود قريش امتدت إلى ملوك الأطراف الأربعة: الغساسنة في بلاد الشام، واللخميون المناذرة في الحيرة بجنوب العراق، والحميريون

في اليمن، ومملكة أكسـوم في الحبشـة. وكانت الحوافز التي منحتها قريش للقبائل من أجل إشـراكها في قوافلها التجاريـة مرنة ومغرية. ولـم تكن حاجة القبائـل إلى الحرم المكّـي، على الصعيد الديني، قليلة شـأن في تيسـير أمر قريش، في قيادتها العرب ومشروعهم التجاري.

لقـد حاولت هوازن في لحظة ما، في القرن الميلادي السـادس، أن تنافس قريشاً في قيادة هذا المشروع، لكن لحساب الحيرة.

كانـت للتجـارة الدولية بيـن المحيط الهنـدي والبحر الأبيض المتوسط، طرق ثلاث أساسية:

- مـن الخليج العربـي إلى الفرات في سـفن، ثم القوافل فـي بادية الشـام، عبر تدمـر حتى شـواطئ البحر الأبيض المتوسط.
- البحر الأحمر حتى القُلزُم (السـويس) أو أَيْلة (العقبة) في سفن، ثم القوافل إلى غزة أو مدن المتوسط الأخرى.
- القوافل الصحراوية عبر مكة، وهي تبدأ رحلتها من اليمن شتاءً (آخر شباط/ فبراير) وتنتهي إلى الشام صيفا.

اضطربت الطريقان الأوليان، عقوداً طويلة في القرن السادس والثلث الأول من القرن السابع، من جراء الحروب بين الساسـانيين والبيزنطيين، وهي حروب اسـتمرت على تقطـع، مـن سـنة ٥٠٢م، ولم تتوقف سـوى بعـد ظهور

الإسـلام، وفتح بلاد الشام سـنة ٦٣٤م. وكانت إذا هدأت بيـن المتحاربَين الكبيرَين، أكملها الـوكلاء حرباً محلية: في بادية الشام بين الغساسـنة والمناذرة، أو عند مدخل البحر الأحمـر بين مملكة أكسـوم في الحبشـة والحِمْيَريين في اليمن.

استفادت قريش من هذه السـانحة التاريخية النادرة، وطـوّرت الطريق الثالثة وجمعت قبائل العرب شـركاء في مشـروعها. لكـن الازدهـار الذي أحـرزه المشـروع، وصراع القوتين العظميين، بيزنطة والساسـانيين، للسيطرة على تجارة الشـرق الآتية مـن المحيط الهندي إلى المتوسـط، أسـالت لعابهمـا، وحفزتهمـا على محاولة السـيطرة على تجارة قريش، ومشروعها المستقل.

فأوعزت بيزنطة لحلفائها الغساسنة أن يغزوا خيبر، ثم يثرب، اللتين كانتا بيد يهود فيهما، هم يهود خيبر، وقبائل قريظة وبني النضير وبني قينُقاع في يثرب. كان اليهود في جزيرة العرب يناصبون بيزنطة العداء، فيما كان الغساسـنة نصارى يحالفونها. وقد سـجّل التاريـخ هاتين الغزوتين في ما ذكره الإخباريون العرب عن «مَفسَـد خيبر»، سنة ٥٦٧م، وسيطرة الأوس والخزرج في تلك السنة تقريباً، على يثرب، بمعونة الغساسـنة. واسـتكمالاً للإطباق على خط التجارة المكّي من الجنوب، أوعزت بيزنطة لأبرهة الحبشـي، وكان

حليفها، بعدما اســتولى على اليمن من ملوكه الحِميَريين، ليغزو مكة في سنة ٥٧٠م، في الحادثة التاريخية التي خلّدها القــرآن الكريم في ســورة الفيــل: {ألم ترَ كيــفَ فعلَ ربُّكَ بأصحــابِ الفيــل * ألَم يجعلْ كيدهم في تضليل * وأرســلَ عليهِــم طيراً أبابيل * ترميهِم بحجارةٍ من سِــجّيل * فجعلهُم كعصفٍ مأكول}.

ونعرف قصة انهزام أبرهة وموت جيشه وارتداده إلى اليمن حيث وافته المنية.

وقد بدا للساســانيين ومملكة الحيــرة، حليفتهم، أن انكفــاء أبرهــة وانتصــار مكة عليــه، قد يعنــي أن الفرصة ســانحة لهما ليســتوليا علــى تجارة قريــش، وعلى خطوط التجارة العربية لحســابهما، لا ســيما بعدمــا آل اليمن إلى ســيف بن ذي يزن، الذي أجهز على الاحتلال الحبشــي في اليمن، وتولى الحكم بتأييد ساســاني أكيد. لكن مكة أثبتت أنها تقود مشروعاً عربياً مستقلاً، وأنها غير مستعدة للتنازل عن أزِمّة القيادة، وأن رفضها هيمنة بيزنطية لم يكن يعني انحيازها للساســانيين، بل سعيها في مشروع مستقل عن القوتين العظميين.

فما الذي حدث في عُكاظ؟

تــرك لنــا الإخباريــون العــرب في كتــب التاريــخ، ما

قـد يصعب علـى القارئ العـادي فهمه، فـلا يفك رموزه إلا الخبـراء. لكـن في كتـاب "المحبَّر" الذي وضعـه لنا أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية عمرو الهاشـمي البغدادي، المتوفَّى سنة ٢٤٥هـ، قصة موجزة، سنحاول فك رموزها، لنكتشف رواية ما حدث.

لنقرأ أولاً نص ابن حبيب مثلما هو. يقول:

«وأمـا فتـكُ البرّاض، وهو رافع بـن قيس، فإنه كان حالَـف بني سـهم من قريـش، فعدا على رجـل من هُذيل فقتلـه. فجـاء بنـو هُذَيل إلـى بني سـهم، يطلبـون بدم صاحبهـم، فقـال بنو سـهم: هذا قـد خلعنـاه وتبرأنا من جرائـره. فقالـت هُذيل: من يعرف هذا؟ فقـال العاص بن وائل: أنا خلعته كما يُخلع الكلب. فسكت الهُذليون ولم يروا وجه طلب. فأتى حرب بن أمية فخالفه، فعدا على رجل من خزاعـة، فقتله وهرب إلى اليمن. فأقام بها سـنة، ثم قدِم ودنا من مكة. فإذا الهُذَليون والخزاعيون يطلبونه وقد خُلِع. فقال: ما لي خيـرٌ من النعمان بن المنذر. فلحق به فوافق وفـود العرب بالحيرة عنده. فأقام يطلب الإذن معهم. فلم يصـل حتى طال عليه المقام وجفـا. وكان للنعمان لَطِيمة يبعث بها كل عام للتجارة إلى موسم عُكاظ. فخرج النعمان، فجلس للناس بالحيرة، وكانت عيرات النعمان ولطائمه التي توافي سوق الموسـم إذا دخلت تهامة لم تهج، حتى قَتَل

النعمـان أخا بلعاء بن قيس الكنانـي، فجعل بلعاء يعترض لطائمـه فينتهبها. ففعل ذلك مرتين. فخاف النعمان على لطيمتـه، فقال يومئذ: من يُجير هذه العير؟ فقال البرّاض: أنـا أجيرهـا لـك. فقال الرحّال عـروة بن عتبة بـن جعفر بن كلاب: أنت تجيرها على أهل الشيح والقيصوم؟ وأنما أنت كلب خليع. أنت والله أضيق اسـتاً من ذلك. ولكني أنا أيها الملـك أجيرها لك من الحيَّين كليهما. فقال البرّاض: أأنت تجيـر على تهامة؟ فلم يلتفت النعمـان إلى قول البرّاض، وازدراه. فدفع اللطيمة إلى عروة الرحّال، فخرج بالعير وخرج البـرّاض في إثره. فلما كان ببعـض الطريق، أخرج البرّاض الأزلام يستقسـم بها، فقـال له الرحّال: مـا تصنع؟ قال: أسـتخير فـي قتلك. فضحك عـروة، ولم يَرَه شـيئا. فلما انتهـى عـروة إلى أهله، دوين الجريب، بمـاء يقال له أُوارة، أنزل اللطيمة وسرّح الظهر، ودخل عروة قُبَّته، فنام. ووثب عليه البرّاض فقتله. ثم مضى حتى أتى خيبر، فكان بسببه حرب الفِجَار بين كنانة وقيس».

(المحبَّر، لأبي جعفر محمد بن حبيب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بلا تاريخ، ص ١٩٥ و١٩٦).

تعالـوا نُعِد قـراءة القصة، بعبارات تميـط اللثام عما تقوله هذه الرواية التاريخية وتوضحه. يقول ابن حبيب:

إن البـرّاض كان حليفاً لبطن من بطون قريش، فقتل

رجـلاً مـن هُذَيل، فلما جاء بنـو هُذَيل يطلبـون من قومه الاقتصـاص منه، هدر هؤلاء دمـه، وخلعوه من حمايتهم وأباحـوا لبني هُذَيـل قتله ثأرا. ثم قتل البرّاض رجلاً آخر من خزاعـة، فصار دمه مطلوبـاً في هُذيل وفي خُزاعة ولم تعد قريش تحميه. فهرب إلى اليمن ومكث هناك سـنة، فلما عاد خاف أن يقتله أصحاب الثأر، فقال في نفسه إن أفضل من يجيـره النعمان بن المنـذر في الحيرة بجنـوب العراق. فمضـى إلى الحيرة وانتظـر فرصة ليقابـل النعمان، لكنه انتظر طويلا حتى خرج ملك الحيرة إلى الناس ليسـأل عمن فيهم يستطيع حماية قافلته التجارية، التي نهبها أخو بلعاء بـن قيس الكنانـي مرتين. وكانت قافلة النعمان السـنوية تقصد سـوق عُكاظ. وتبرّع للمهمة البرّاض وعروة الرحّال، وانتهت خِفارة القافلة إلى الرحّال، بعد اسـتهزائه بالبرّاض. فصمـم البرّاض علـى قتل عروة، وهو مـن أعيان هوازن، وقتله فعلاً، فكان ذلك سـبب حرب الفجار في عُكاظ، بين كنانة وقيس.

أما القراءة المتأنية، فترى بين السطور صراعاً واضحاً، بيـن قريـش، وهي من مجموع قبائل كنانـة، وكانت تقود مشـروع قوافل تجارة الإيلاف، من اليمن إلى بلاد الشـام والعـراق، وبيـن قبيلـة قيـس التـي كانـت على مـا يبدو تبحث عن دور مسـتقل، بالاسـتعانة بملوك الحيرة، حلفاء

الساسانيين، لتسيير تجارتهم الخاصة. إذن كان ثمة تنافس بين مجموعتي القبائل هذه للسيطرة على التجارة الدولية عبر شبه الجزيرة العربية. لم تكن هوازن وهي صاحبة عُكاظ، من أحلاف مكة، مع انها قريبة منها، وكانت تقيم سوقاً يحضرها كل العرب، ولا سيما قريش. وقد تكون محاولة البرّاض، وهو حليف قريش، مسعى لضم لطيمة النعمان (اللطيمة هي قافلة جِمال تحمل تجارة)، إلى شبكة التجارة القرشية. لكن يبدو من تصميم النعمان على تسيير قوافله التجارية المستقلة، أنه كان يرغب في الاستيلاء على الخط التجاري القرشي، فكانت حروب الفجار في عُكاظ التي انتصرت فيها قريش، فحُسِم الأمر لمكة وإيلافها.

وإذا حدثت هذه الحروب لصد نفوذ الساسانيين، بين سنتي ٥٨٥ و٥٩٠م، أي بعد ١٥ سنة فقط من محاولة أبرهة، حليف بيزنطة هدم الكعبة، فهي إذن بلا شك، إعلان لاستقلال قريش عن كلتا الدولتين الكبريين: بيزنطة والساسانيين. ولم تنتهِ بانضواء التجارة العربية الدولية كلها تحت جناح مكة وحسب، بل انتهت كذلك إلى استيلاء قريش على سوق عُكاظ، وجعلها تحت نفوذ حلفائها، بعدما كانت لهوازن.

عكاظ المِرْجل اللغوي

الفصل الثاني

العبير

الفصل الثاني
مكانة المرجل اللغوي الكبير

يتفـق علمـاء اللغـة العربية فـي الإجمال علـى أن القرآن الكريـم، بنزولـه بلغة قريـش، عمّم اللغـة العربية، لا بين العـرب وحدهم، بل كذلـك في كل ديار المسـلمين، عرباً وعجمـا. لكنهم وهم يؤكدون هذا، يـرون أن النزول بلهجة قريش ما كان يسـهّل للعرب فهم الآيـات، لو انهم كانوا يجهلون هذه اللهجة، التي كانت لقبيلة دون غيرها.

لذا لا بد من أن نعزو إلى أسواق العرب، وكانت عُكاظ أعظمهـا وأكثرها حشـداً للناس، العوامل والأسـباب التي أدت إلى تطوّر اللهجات العربية قبيل الإسـلام، على النحو الـذي قرّبها أشـد تقريب تمهيداً لاسـتقبال الوحي المنزل وفهمه. قال الله في كتابه العزيز: {وما أرسَـلنا من رسـولٍ إلا بلسـانِ قومِه ليُبيِّنَ لهُم} (الآية: سورة إبراهيم، ٤). في تلك الأسواق التقت القبائل وتبادلت البيع والشراء وكتابة العهود والتباري شعرا.

لـم يكن قُصّاد عُكاظ مـن قبائل الجوار فقط، بل كان يقصدهـا سـائر قبائـل العرب، مـن عرب الشـام والعراق

والخليج واليمن والبلاد المجاورة، على نحو يشبه كثيراً ما صار العالم المعاصر ينظمه من معارض وأسواق دولية. فكانت السوق تضيق بمن حضر، وكان التجار يكسبون فيها ما لا يمكن أن يكسبوه في أي سوق أخرى، ولولا ذلك لما شدّوا إليها الرحال من هذه الأصقاع البعيدة.

يقول أحمد بن محمد بن حسن الأصفهاني المرزوقي، في كتابه: الأزمنة والأمكنة (حيدر أباد الدكن، ١٣٣٢هـ، ج٢ ص١٦٨ و١٦٩): [لما] دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل، حضر السوق من نزار واليمن ما لم يُعرَف أنه حضر مثله في سائر السنين، فباع الناس كل ما كان معهم من عروض تجارية.

وكانت لكل قوم من نزلاء السوق منازلهم الخاصة ينصبون فيها خيامهم، ويرفعون عليها راياتهم، وكان على رأس كل وفد شيخ القبيلة أو من ينوب عنه. وحين يأزف أوان البيع والشراء، كانوا يخرجون من مضاربهم إلى المعارض والأندية في رحاب السوق، فيلتقي اليماني بالشامي والحجازي بالعماني، فتمتزج القبائل في شتى الأمور، ويبحثون في البيع والشراء ويتبادلون التفاخر والشعر، ويروون الأحاديث والروايات بعضهم لبعض، عما فاتهم من عام إلى عام. فكانوا على علم متصل بما في ديار الآخرين، يتسقّطون الأخبار عما يحدث بين أقصى الجنوب

الشرقي، في عمان، وأقصى الشمال من بلاد الشام.

لم يُغفل شـعراء الجاهلية، حين كانوا يؤمون عكاظاً، ذكرهـا أو ذكر بعـض مواضعها في شـعرهم. إذ حفظ لنا الشعر الجاهلي من تباريهم وتفاخرهم، قول الشاعر خداش بن زهير العامري:

فأبلِغ إن مررتَ به هشاماً
وعبدَ اللـه أبلِغ والوليدا
بأنّا يومَ شَمطَةَ قد أقمنا
عَمودَ الدينِ إن له عَمودا

وشمطة كانت من أيام الفِجار في عُكاظ. وقال الشاعر أيضاً:

ألَم يبلّغكُم أنّا جَدَعنا
لدى العبلاءِ خندَفَ بالقيادِ
ضربناهُم ببطنِ عكاظَ حتى
تولّوا ضالعين من النجادِ

وظل العرب على هذا سـنوات طويلـة، حتى توحّدت لهجاتهم توحداً وثيقاً، لا سـيما من حاجتهم في الأسـواق إلى التفاهم في التجـارة وفي كتابة العقود والعهود بدقة ووضوح، وكذلك من تباريهم شعرا. وقد اختلف المؤرخون

في سنة بداية عقد السوق. فمن قائل إنها بدأت في سنة ٥٨٥م، إلى من يخالف هذا بأنها بدأت سنة ٥٠٠م، وهذا أقرب إلى المنطق، لأن قريشاً بدأت تدعو قبائل العرب كلاً في دياره، إلى مداورة أسواقهم على مدار السنة، منذ أن أخذ لهم هاشم بن عبد مناف وإخوته عهود الإيلاف من ملوك الأطراف في الشام والعراق واليمن والحبشة، حتى يسيّروا تجارتهم الدولية. وكان هذا في أوائل القرن الميلادي السادس.

ويرى الدكتور جريدي المنصوري أن سوق عُكاظ أقدم من ذلك، فهو يرى بدء إقامتها في القرن الأول الميلادي، سوقاً محلية. ويرى أن سقوط البتراء سنة ١٠٦م بيد الإمبراطور الروماني ترايانوس، قد أدى إلى انتقال تجارة القوافل إلى الحجاز ونشاط التجارة في أسواقها، ولهذا فإن ما ورد من أن عمرو بن لحيّ الخزاعي، سيد مكة في عصره، هو أول من عكف على تنظيم الشؤون العامة بمكة والحجاز وترغيب سائر العرب في حضور مواسم العبادة والتجارة، فعيّن للمواسم أئمة يديرونها، وكان منهم أئمة عكاظ وقضائها، وهذا يعني أن سوق عكاظ كانت موجودة قبل ذلك فنظمها ولم تنشأ في زمنه. ويذكرون أن سعد بن زيد مناة هو أول من اجتمعت له إمامة سوق عكاظ والقضاء بعكاظ، وهذا يعني أن السوق

كانت موجودة قبل ذلــك، وتعاقب على إمامتها وقضائها عدد من الناس، وأنها اشــتهرت بما يجعلها موضع اهتمام ســيد مكة، والأمثال التي صدرت عــن ضبة بن أد بعكاظ، بعد مقتل ابنه سُعيد وهو عم تميم بن مر بن أد، تعود إلى القرن الميلادي الثاني. وهذا يعني أن القوم اعتادوا حضور عكاظ وأنهم ينشــرون فيها أخبارهم وأمثالهم وأشعارهم، التي يتلقفها قبائل العرب، ولهذا يميل الدكتور المنصوري إلى أنها كانت موجودة في القرن الميلادي الأول.

أما في موعد قيام ســوق عُكاظ في بحر الســنة، فإن ابن حبيب ناقض نفســه في كتابيه: المحبَّر والمنمَّق، لكن المدقق سرعان ما يكتشف سر التناقض على نحو يؤكد أن موعد الســوق كان في أول ذي القعدة، عشــرة أيام، تليها سوق مجنّة ثم سوق ذي المجاز، قبل بدء مشاعر الحج.

كيــف إذن وحّــدت عُكاظ، أو أســهمت فــي توحيد لهجات العرب؟

كانــت لهجــات القبائــل العربية شــديدة التنــوّع قبل الإســلام، يدل علــى هذا ما تركته لنا المعاجم، ولا ســيما لسان العرب وصحاح الجوهري وغيرهما، من إشارة متكررة إلــى تنوّع الكلام عند هذه القبيلة أو تلك، في هذه الكلمة أو تلك. ويــرى علماء اللغة العربية أن الفروق بين اللهجات

لم تكن مما يُستهان به. وكان التفاهم صعباً، لا سيما بين البدو والحضر. وكانت لهجة بني كلب في الشام، أقرب إلى كلام البدو، من لهجة ربيعة عند ضفة الفرات. وكان القرب الجغرافـي يجعل حياً من قبيلة ما، أقرب لهجةً إلى حي من قبيلة أخرى. واتُّخذ هذا التشابه بفعل التماس، وهو يخترق حدود القبائل، دليلاً على أن اللقاء السـنوي في الأسـواق كان فاعلاً جداً في تطور اللغة العربية إلى لهجات تسير نحو التقارب، ما دام التماس البشري يفعل هذا الفعل.

وفي عُكاظ، كانت تقام مساجلة شعرية، وكانت على صعيـد لغـوي راقٍ، لأن الشـعراء فيها كانوا يسـعون في كسب قصب السـبق، والخروج بفوز على شـعراء القبائل الأخـرى. ولم يكن ظهور "لغتين"، واحدة للتخاطب اليومي والثانيـة فصحى، سـبباً لتبعثـر العرب بل العكـس، إذ ان الفصحى أنشـأت وعاء للجميع، يسهِّل الاتصال والتجانس والتفاهم، أياً كانت "اللغة" الثانية.

كانت كثرة اللهجات تصعّب التفاهم في بداية العيش المشـترك الذي أحدثته الأسـواق ومشـروع التجـارة الذي قادتـه قريش في إيلافها. لكن اللقاء السـنوي أخذ يضيّق مسـاحة عـدم التفاهم، ويوسّـع مسـاحة التماس شـيئاً فشيئا. لم يصبح التفاهم كاملاً، لكن عدم التفاهم لم يكن مطلقاً، بل كان يتقلص شيئاً فشيئاً مع كل عام في عُكاظ.

كان يـؤمّ سـوق عُكاظ الحكمـاء والقضاة والشـعراء والخطباء. وكانوا يخاطبون القبائل من على منابر، بحِكَمهم أو شـعرهم أو قضائهـم، بلغة عربية منقّـاة من اللهجات الضيقة، حتى يفهمها الجميع. بل كان مبشـرون يغشـون السـوق للدعـوة لدينهم. فكانت عُكاظ مِرجـلاً تعتمل فيه عوامل التوحد الثقافي واللغوي أيّما اعتمال.

أما الشـعراء فكان عليهم أن يلتزمـوا لغة قريش في الفصاحة والقصائد التـي يلقونها متبارين على حكّام. فما تقبله قريش يكون مقبولاً وما ترفضه يُشـاح عنه. وبذلك اختفـت هَنَـوات كثيرة من كلام العرب، مثـل عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وتضجُّع قيس وتلتلة بهراء وعجرفية ضبّة وغمغمة قضاعة، وكلها مفسّـرة في لسان العرب. كذلك لوحظ انحسـار استخدام لغة المُسنَد في اليمن، مع ازدهار عُكاظ والأسواق، واقتراب الزمن من ظهور الإسلام.

كان حكام الشعر في عُكاظ فحولاً مشهوداً لهم، وذُكر منهم النابغة الذبياني. فإذا فازت قصيدة من تلك المتبارَى بها، «عُلّقت». وفسـروا التعليق على وجوه عديدة، فقيل: علقـوا القصيدة أي عدّوها عِلقاً، أي شـيئاً نفيسـاً، وقيل: كتبوها بماء الذهب وعلقوها على أستار الكعبة المشرّفة، وقيـل: بل عَلِقت في أذهانهم أي حفظوها عن ظهر قلب. ويُتَّفَق إجمالاً على أن المعلقات ثمان:

معلقة امرئ القيس الكندي
معلقة زهير بن أبي سُلمى المُزني
معلقة النابغة الذبياني
معلقة الأعشى القيسي
معلقة لبيد بن ربيعة العامري
معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي
معلقة طرفة بن العبد البكري
معلقة عنترة ين شداد العبسي
لكن بعض الباحثين يزيد:
معلقة الحارث بن حِلِّزة البكري
معلقة عَبيد بن الأبرص الأسدي

ولعل من أجمل ما قيل شعراً في عُكاظ، من غير المعلقات، ما قاله علقمة بن عَبَدَة التميمي، في إحدى قصائده التي عرضها على قريش في السوق، فاستحسنتها:

طَحا بكَ قلبٌ في الحسان طروبُ
بُعَيدَ الشباب عصرَ حانَ مشيبُ
يكلفني ليلى وقد شطّ عهدُها
وعادت عوادٍ بيننا وخُطوبُ
إذا غاب عنها البعلُ لم تُفش سِرّهُ
وتُرضي إيَابَ البعلِ حينَ يؤوبُ

فإن تسألوني بالنساءِ فإنني
بصيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ
إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلّ مالُهُ
فليسَ لهُ من ودِّهِنّ نصيبُ

كانت كثرة الخطباء والشعراء تُعزَى إلى أن الشاعر والخطيب كانا يشيدان بقبائلهما في المواسم، ويطريان بحسبها. وكانت القبيلة إذا ظهر لها شاعر مُجيد، احتفلت بأحلى ما يمكن الاحتفال من إقامة الولائم ولعب المزاهر مثلما كانوا يفعلون في الأعراس. ولذا كانت الكلمة في عُكاظ دليلاً على مكانة القوم في باقي العرب.

ومن أشهر الأدلة على أن العرب كانوا يقصدون عُكاظاً، ليعرّفوا بقومهم وبآدابهم وشرفهم، أن أمية ابن خلف الخزاعي، حين هجا حسان بن ثابت في قصيدته، أراد أن يفشيها بين الناس، فسعى في نشرها في عُكاظ، وذلك في قوله:

ألا مَن مُبلِغٌ حسّان عني
مُغَلغِلةً تدبّ إلى عُكاظ

فرد حسّان بقصيدة زايد فيها على أمية بقوله:

سأنشرُ إن بقيتُ لكم كلاماً
يُنَشّرُ بالمجامعِ من عُكاظ

لم تكن المعلقـات والقصائد والخطب وحدها تندفع باللهجـات العربيـة نحـو مصـب واحـد، فأحاديـث التجارة والمجتمع والحرب والسلم والسياسة والعصبية والأحلاف والخلـع، وشـؤون الحياة اليومية، كانت مسـاحتها أوسـع للتمـاس فـي الأسـواق والمواسـم، ولعل هـذا التماس كان أشـد فعلاً من لغة الفصاحة في تقريب اللهجات قبل الإسـلام، وهو أمر انقلب ربما إلى عكسـه في الإسـلام، مـن أثر التوحيد الشـامل الـذي أحدثه القـرآن الكريم، على صعيـد اللغة علـى الخصوص، وعلى صُعـد أخرى بالطبع. فصـار توحُّد اللهجات ممكناً بلغـة القرآن، من دونما حاجة إلى عيش مشترك وتماس في الأسواق.

ثمـة من يقـول مـن الباحثيـن إن لغـات القبائل لم تتحرك وحدها نحو الفصحى، بل ان لغة قريش أيضاً كانت تقترب في عُكاظ والأسـواق الأخرى، مـن اللغة الفصحى التـي نزل بها القرآن الكريـم. لكن الأمر الأكيد، هو أن هذه اللغة الفصحى كانت قد سادت في العهد النبوي، في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريباً، فكانت الوفود إلى المدينة تُحـدِّث بهـا النبي صلى اللـه عليه وسـلّم، بطلاقة، وكان يحضـر عُكاظ قبـل البعثة. كذلك لم تكن وفـود النبي إلى العرب تصادف أي عقبة لغوية في مهامها لدى القبائل.

كانـت قريش تختـار أفضل لغات العـرب حتى صارت

لهجتُها أفضلَها، ولو قال كل شاعر شعره في عُكاظ بلهجة قومه، لم يجد من يستحسـنه، ولوقفت شهرته فيهم، لم تتعدَّ إلى بقية العرب.

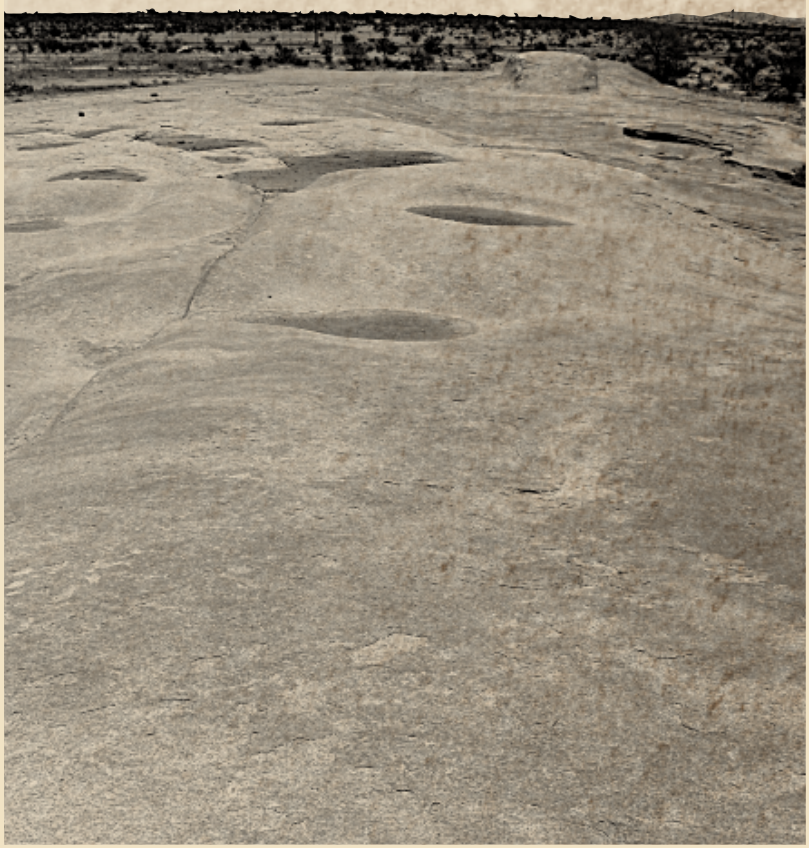

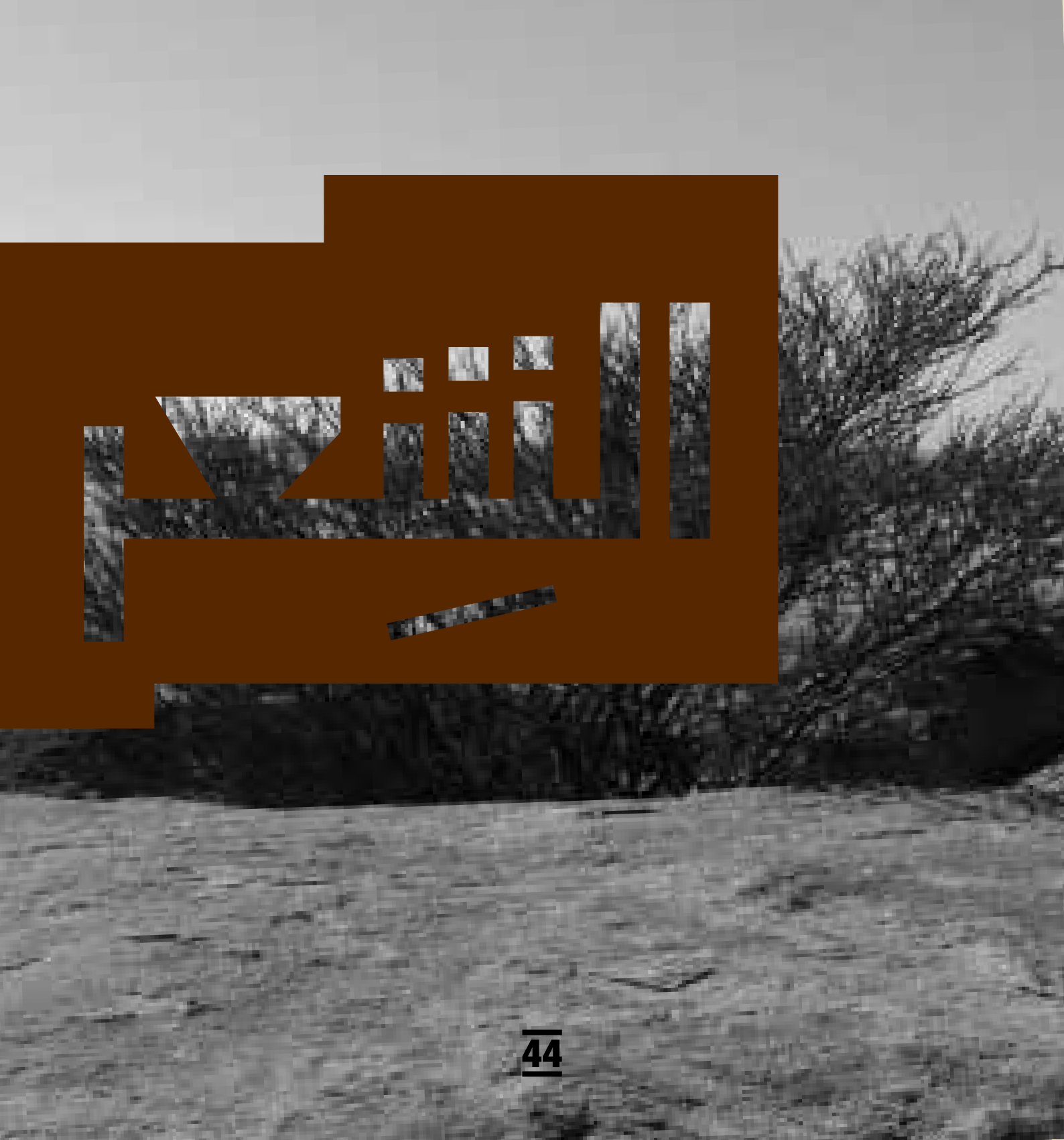
التنظيم

الفصل الثالث

نيكاراغوا

المعلقات وأصحابها

الفصل الثالث

الشعر في عكاظ
المعلقات وأصحابها

قالوا في عُكاظ.

حيــن نســمع هــذه العبــارة، يختلط علينــا فهمهــا. فهل المقصود ما قاله الشعراء، وهم يقفون على أرض السوق قبل أربعة عشــر قرناً ويزيد، أم المقصود ما قال الشــعراء والأدباء والمؤرخون في العصور الحديثة عن الســوق وهم فــي أصقاع مختلفــة، أو ما قالوه في الســوق وعنها بعد إحيائها منذ سنوات أربع؟

لــذا كان عنــوان الفصــل الثالث: الشــعر فــي عُكاظ، يعبّــر عما قيل من شــعر في الســوق، أيــام الجاهلية. أما مــا قاله شــعراء عصرنا هذا عن الســوق، فآثرنــا فيه قلب عنوان الفصل الرابع: عُكاظ في الشــعر، بدلاً من: الشــعر في عُكاظ. وفي هذا تمييز للأمرين، أحدهما عن الآخر.

نشرت دور نشر كثيرة القصائد المعلقات، التي ألقيت في ســوق عُكاظ. وثمة شــرح لســبع منها وضعه الزوزني. وهو المرجع الشعبي الأوسع رواجاً، لأنه يشرح كل بيت وكل كلمة في المعلقة، على النحو الذي يروي ظمأ كل قارئ.

والزوزنــي هو أبو عبد الله الحســين بن أحمد الزوزني،

الذي توفي سـنة ٤٨٦هـ (١٠٩٣م). ويقـال إن المعلقات لم تُسَـمَّ معلّقات في يومها، وإن أول من سـماها كذلك هو ابن الكلبي، هشـام بن محمد بن السـائب، صاحب كتابي: الأصنام، وأنساب الخيل.

لـم يتفق الإخباريـون العرب في عـدد المعلقات، فابن عبد ربه الأندلسـي صاحب العقد الفريد، وابن خلدون صاحب المقدمة، وغيرهما، ابن الرشيق والزوزني نفسه، رأوا أنها سبع. ورأى ابن النحاس أنها تسـع، والتبريزي عشر. ويُعتَقَد أن سبب الاختلاف أن ما ألقي من أجمل قصائد الشعر المطوّلات، في سوق عُكاظ، كان يدخل في تصنيف المعلقة، فأدرج بعضهم في هذا الصنف قصائد لم يُدرجها آخرون.

لكن كثرتهم اتفقوا على سبع على الأقل.

وكانوا يسـمونها السـبع الطوال، أو المذهبات، لأن الجاهليين كانوا يخطّونها بماء الذهب ليلعقوها على أستار الكعبة المشـرّفة. وكان ثمة من يسميها: السّموط، لقول حكام الشـعر في عُكاظ، حين تعجبهـم قصيدة تُلقى على أسـماعهم: هذه سمط الدهر. وسَمَط الشـيء، أي علّقه.

١ - أمرؤ القيس (٤٩٧ – ٥٤٥م)

هـو حُندُج بن حُجر الكنـدي، وكان والده ملكاً، وكانت منازلهم غـرب حضرموت، وقُتل والده لجـوره على رعاياه.

كان مترَفاً في شـبابه، وتعسـاً في رجولتـه، وأمضى بقية عمره سـعياً في الثأر لوالـده، دون جدوى. وكان في فتوّته لعوبـاً زير نسـاء. وكتب في معلقته عن عشـقه عنيزة ابنة عمه شُـرَحْبيل، وحجزِه ثياب عذارى كن مع عنيزة يغتسـلن في غدير يقال لـه: دارة جُلجُل، ثم عَقرِه ناقته لإطعامهن، وركوبه ناقة عنيزة، للحاق بالقبيلة الظاعِنة.

يبدأ امرؤ القيس معلقته بالبيت الشهير:

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسِقطِ اللّوى بينَ الدَخولِ فحَومَلِ

ومن أشـهر أبياتهـا، وأجملها اخترنا هـذه، وفيها ذكر ليوم دارة جُلجُل وذكراه العزيزة على قلبه:

ألا رُبّ يومٍ لكَ منهنّ صالحٌ
ولا سيما يومٌ بدارةِ جُلجُلِ
ويومَ دخلتَ الخدرَ خدرَ عنيزةٍ
فقالت: لكَ الويلاتُ إنك مُرجِلي
تقولُ وقد مال الغبيطُ بنا معاً:
عقرتَ بعيري يا امرأَ القيسِ فانزلِ
فقلتُ لها: سيري وأرخي زمامَهُ
ولا تُبعديني من جَناكِ المعلّلِ
أفاطمَ مهلاً، بعضَ هذا التدللِ

وإن كنتِ قد أزمعتِ صرمي فأجمِلي
أغَرّكِ مني أنّ حبّكِ قاتلي
وأنكِ مهما تأمُري القلبَ يفعلِ
وليلٍ كموج البحرِ مُرخٍ سدولَه
عليَّ بأنواع الهمومِ ليبتلي
فقلتُ لهُ لمّا تمطّى بصُلبِه
وأردَفَ أعجازاً وناءَ بكَلكَلِ
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجل
بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ

ثم يقول:
مِكرٍ مِفرٍ مُقبلٍ مُدبرٍ معاً
كجُلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علِ
فبات عليه سَرجُهُ ولِجامُهُ
وباتَ بعيني قائماً غيرَ مرسَلِ

ويذكر التاريخ أن امرأ القيس قصد القسطنطينية سنة ٥٣٨م، ليطلب مساعدة الإمبراطور يوستنيانوس، بجيش يوسع نفوذ بيزنطة في شبه الجزيرة العربية على حساب الفرس، لكن الإمبراطور لم يُجِبهُ إلى طلبه، فعاد خائباً وأصيب بالجدري قرب أنقرة، ومات هناك.

٢ - طرفة بن العبد (٥٣٨ – ٥٦٤م)

اســمه عمرو بن العبد بن سفيان السعدي من بكر بن وائــل، كان قومه ينزلون في البحرين، ويَتِم صبياً من أبيه، وحرمه أعمامه حقه فــي الميراث، فعاش وأمه في بؤس. قال الشعر شاباً وكان أكثر مدحه وهجائه في بلاط الحيرة.

رعــى إبلاً له ولأخيه، وكان يلهو عنها بقرض الشِــعر، وفي هذا قال له أخوه: لمَ لا تستريحُ بإبلك؟ تُرى إن أُخِذَت منــك، تردّها بشــعرك هذا؟ فقــال طرفة: فإنــي لا أَخرج بها أبداً، حتى تعلمَ أن شــعري ســيردها، إن أُخِذَت. فتركها وأخذهــا مضريون. فادّعى طرفة جوار عمرو وقابوس، ابني المنذر الثالث ملك الحيرة، وخاطبهما شعراً بقوله:

أعمرُو بنُ هندٍ ما ترى رأيَ صرمةٍ
لها سببٌ تَرعى به الماءَ والشجرْ
وكان لها جارانِ قابوسٌ منهما
وعمروٌ ولم أسترعِها الشمسَ والقمرْ

وقيل إن عَمراً وقابوساً عوّضاه إبلاً بدلها.

لكــن عمرو بن هند لم يُبقِ مع طرفة مودة حين تولى المُلك بعد وفاة المنذر الثالث، فمضى الشاعر مع صديقه عمــرو بن مامة، فــي تجارة إلى اليمن وماتــا مقتولين في طريق عودتهما، وكان طرفة لمّا يزل شاباً.

ظهـرت في معلقة طرفة شـكواه من ذويه، وحكمته فـي الدنيـا، وفخره بما له من شـجاعة وكـرم. وهي دليل تاريخـي ممتاز في خُلُق العربي الجاهلي وقيمه الاجتماعية والأخلاقية. وفيما يلي بعض أشهر أبياتها:

لخولةَ أطلالٌ ببُرقَةِ ثَهمَدِ
تلوحُ كباقي الوشْمِ في ظاهرِ اليدِ
وقوفاً بها صَحبي عليّ مطيّهم
يقولونَ: لَا تهلك أسىً وتجلّدِ
إذا القومُ قالوا: مَن فتى؟ خلتُ أنني
عُنيتُ فلم أكسَل ولم أتبَلّدِ

ثم يقول في مواضع متفرقة:

فإن كنتَ لا تَسْطيعُ دفعَ منيّتي
فدعني أبادرْها بما ملكَتْ يدي
فذَرني أُرَوّي هامتي في حياتِها
ستعلَمُ إن متنا غداً أيّنا الصّدي
إذا ابتدرَ القومُ السلاحَ وجدتَني
منيعاً إذا بُلّت بقائمِه يدي
ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً
ويأتيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوّدِ
لَعَمرُكَ ما الأيامُ إلا مُعارَةٌ
فما اسطَعتَ من معروفِها فتَزَوّدِ

٣ - عمرو بن كلثوم التغلبي (نحو ٥٠٠ - ٥٨٤م)

هــو عمرو بن كلثــوم بن مالك بن عتــاب من تغلب، منازلهــم فــي الجزيــرة الفراتيــة، من شــمال بلاد الشــام والعــراق. جده لأمه المهلهل الشــاعر، وعمُّها كليب. ســاد قومَه وهو فتى لم يبلغ العشرين. وكان فارساً شجاعاً. كان يــزور ملك الحيرة عمرو بن هند، وينشــده الشــعر من دون مدح، وحين اختصما قتل الشاعر الملك سنة ٥٧٠م.

ارتهن عمرو بن هند من كلٍ من تغلب وبكر مئة رجل، ليجبــر القبيلتيــن على وقــف حرب البســوس. وحين مات رهائن مــن تغلب، فيما كانوا عند حلفاء لبكر، عطشــاً كما قال بعض، أو بريح السموم كما قال آخرون، وكادت الحرب أن تعــود، جمع عمــرو الملك أعيان القبيلتيــن في اجتماع توفيــق، انتهى إلى قول عمرو الشــاعر، والحــارث بن حِلِّزة معلقتيهما.

وقيــل إن معلقة عمرو بن كلثوم ألــف بيت، لم يبقَ منها ســوى مئة بيت تقريباً. وبعضها قيل قبل قتل عمرو بــن هند، وبعضها بعــد قتله. وهي تزخــر بالوعيد للملك، وبالفخر والحماسة.

من أشهر أبياتها، على غير اتصال:

أبا هندٍ فلا تَعجَل علينا
وأنظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقينا

بأنّا نُوردُ الراياتِ بيضاً
ونُصدرهُنّ حُمراً قد رُوينا
وإنّا العاصمون إذا أُطعنا
وإنّا العازمون إذا عُصينا
وإنّا المُطعِمون إذا قَدَرنا
وإنّا المُهلِكون إذا ابتُلينا
وإنّا المانعون لِمَا أَرَدنا
وإنّا النازلون بحيث شينا
ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا
فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا
إذا بلغَ الفِطامَ لنا صبيٌّ
تخِرّ له الجبابرُ ساجدينا
ملأنا البرّ حتى ضاقَ عنا
وظهرُ البحرِ نملأُهُ سفينا
لنا الدنيا ومَن أَضحَى عليها
ونبطُشُ حين نبطشُ قادرينا

٤ - الحارث بن حِلِّزة اليشكري (نحو ٥٠٠ – ٥٧٠م)

كان الحارث بن حِلِّزة سـيداً في قومه بني يشكر بن بكر بن وائل، من أهل العراق. وقد عُمِّر طويلا، واجتمع لدى عمرو بـن هند مع عمرو بن كلثوم، في مسـعى ملـك الحيرة في

الصلح بين القبيلتين، بعد حرب البسوس. وقد مال الملك إلى الحارث بأنه مدحه في المعلقة التي ارتجلها بين يديه، فيما نفّره عمرو بن كلثوم، لأنه اكتفى بالتفاخر بقومه، من دون أن يطري بالملك في شيء. ولذا رد الملك رهائنه من بكر إلى الحارث. ولعل هذا كان بداية الخصام بين العمرين، الملك والشاعر، وهو خصام انتهى بقتل الشاعر الملك.

معلقة الحارث طويلة جداً، وقد حفلت بأخبار أيام العرب وزخرت بالفخر أيضا. ومن متناقض حال الحارث أن هذه المعلقة الطويلة كانت من شاعر مقل، لم يخلد من شعره سوى المعلقة.

وهي تبدأ ببيت شهير عن أسماء التي تُخبر بعزمها على الرحيل، فيشكو الشاعر أنها تغادر، فيما يمل المكان ممن يبقون. ذلك في قوله:

آذَنَتنا ببينِها أسماءُ
رُبَّ ثاوٍ يمَلّ منهُ الثَواءُ

ويتحوّل إلى النزاع مع تغلب، فيقول:

أجمَعوا أمرَهم عِشاءً فلمّا
أصبَحوا أصبحَتْ لهم ضوضاءُ
مِن مُنادٍ ومِن مُجيبٍ ومِن تَصْـ
ـهالِ خيلٍ خلالَ ذاكَ رُغاءُ

أيها الناطق المرقِّش عنّا
عندَ عمروٍ وهل لذاكَ بقاءُ
أيها الناطق المبلِّغُ عنّا
عندَ عمروٍ وهل لذاك انتِهاءُ
لا تَخَلنا على غَراتك إنّا
قبلُ ما قد وَشَى الأعداءُ
أعلينا جُناحُ كِندَةَ أن يَغـ
ـنَمَ غازيهُمُ ومنّا الجزاءُ
أم جنايا بني عتيق فإنّا
مُنكُمُ إن غدرتُمُ لَبَراءُ

٥ – زهير بن أبي سُلمى (نحو ٥٢٠ – ٦٠٩م)

لمّا كان زهيرٌ هو القائل:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يَعِشْ
ثمانين حولاً لا أبا لكَ يسأَمِ

فهـو حتمـاً عُمِّر ٨٠ سـنة علـى الأَقَـل. وكانت هذه السـنوات شمسـية، لأن العرب الذين كانـوا اعتمدوا منذ أيام الجاهلية التقويم القمري، إنما كانوا يُنسئون الشهور، أي يزيدون شـهراً قمرياً على روزنامتهم، كل ثلاث سنوات تقريبـاً، من أجل أن تبقى الأشـهر القمريـة مطابقة تقريباً للمواسم الشمسية، حتى تسير قوافل الشتاء في الأشهر

الحرم، إلى اليمن. والسنوات المنسوءة في المدى الطويل، تكاد تساوي السنوات الشمسية في مجموع عدد الأيام. فإذا كانت وفاته في سنة ٦٠٩م، فإن مولده غير المعروف زمانه تماماً، لا بد أنه قبل سنة ٥٢٩م، وثمة من يقول بولادته سنة ٥٢٠م تقريبا.

هو زهير بن ربيعة بن رياح المُضري. وقد يَتِم من أبيه وهو صبي، فتزوجت أمه من أوس بن حَجَر، الذي عُني به، وجعله راوية له.

تزوّج زهير امرأة كنيتها أم أوفى ورُزق منها أولاداً ماتوا جميعاً، فطلقها وتزوّج كبشة بنت عمّار بن سحيم، من بني غطفان، وولدت له كعباً وبجيراً.

كان زهير أحكم شعراء العرب، وأكثرهم وقاراً في شعره. فقال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان لا يُعاظل (لا يخلط في الكلام)، ويتجنب وحشيّ الكلام، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه. وكان كثير التنقيح والتهذيب في لفظه، حتى قالوا إنه ينظم القصيدة في أربعة أشهر، وينقحها في أربعة أشهر، ثم يعرضها على أصحابه في أربعة أشهر، حتى يتم له ذلك في حول كامل، أي في سنة كاملة، ولذا سُمّيَت قصائده: الحوليّات.

قال زهير معلقته في مدح الحارث بن عوف والهَرِم بن سنان، لدورهما في الصلح بين العبسيين والفزاريين،

بعد حرب داحس والغبراء، وقصتها معروفة في المراجع.
ومن أرق ما قاله في المعلقة:

تُذَكِّرني الأحلامَ ليلى، ومَن تَطُف
عليهِ خيالاتُ الأحبّةِ يَحْلُمِ

وفيها البيت الشهير:

فشَدّ ولم يُفزِع بيوتاً كثيرةً
لدى حيثُ ألقَتْ رَحلَها أمّ قَشعَمِ

لكن أخلد ما فيها، تلك السلسلة من الحكم المتلاحقة في المعلقة، ونختار منها ما يلي:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَن يَعِشْ
ثمانينَ حولاً لا أبا لكَ يسأمِ
وأعلمُ ما في اليوم والأمس قبلَهُ
ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عَمِ
ومَن يكُ ذا فضلٍ فيبخَلْ بفضلِهِ
على قومِهِ يُسْتَغنَ عنهُ ويُذمَمِ
ومَن يجعَلِ المعروفَ من دونِ عِرضِهِ
يَفِرْهُ ومَن لَا يتّقِ الشتمَ يُشتَمِ
ومَن لا يَذُدْ عن حَوضِهِ بسلاحِهِ
يُهَدَّمْ ومَن لَا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ

ومَن يغتربْ يَحسَب عدواً صديقَهُ
ومَن لا يكرّم نفسَهُ لا يُكَرّمِ
ومهما تكُن عندَ امرئ من خليقة
وإنَّ خالَها تَخفَى على الناسِ تُعلَمِ
ومَن يَجعلِ المعروفَ في غيرِ أهلِه
يكُن حمدُهُ ذماً عليهِ ويَنْدَمِ
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ
فلم يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ

٦ – لبيد بن ربيعة (نحو ٥٤٠ – ٦٦١م)

عُمِّر لبيد فوق المئة، وفي ذلك قال:

ولقد سئمتُ من الحياةِ وطولِها
وسؤالِ هذا الناسِ كيفَ لبيدُ؟

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، كان شاعراً شهيراً في الجاهلية، وأسلم وكان من المؤلفة قلوبهم، فلم يقل شعراً كثيراً في الإسلام، ويقال إن له فيه بيتاً واحداً:

الحمدُ للهِ إذ لم يأتِني أجَلي
حتى اكتسيتُ من الإسلامِ سِربالا

وقيل إنه قال شعراً كثيراً بعد إسلامه، لكنه لم يكن في جودة شعره في الجاهلية.

كان أبــوه مــن الأغنياء، لكن نعمتهم لــم تدم طويلاً، فتركــوا ديارهم فــي نجد، وارتحلوا إلى اليمــن، وعادوا إلى نجد بعد زمن. واتصل لبيد بالنعمان بن المنذر أبي قابوس، الذي ملك الحيرة سنة ٥٨٠م.

وقصة إسلامه، أن أخا لبيد ورجلاً آخر من عامر وفدوا على النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، في جمادى الآخرة من ســنة ٨ للهجرة، ولم يدخلا في الإســلام، ثم ماتا بعد أيــام. ثم جاء المدينة في ســنة ٩ للهجرة وفــد عامري فيه لبيد، فأسلموا جميعا. ويقال إن إسلامه لم يَحسُن.

لما بلغ لبيد السابعة والسبعين من العمر، قال:

قامت تَشَكّى إليّ النفسُ مُجهِشَةً
وقد حَمَلتُكَ سبعاً بعدَ سبعينا
فإن تُزادي ثلاثاً تَبلُغي أملاً
وفي الثلاثِ وفاءٌ للثمانينا

أما المعلقة فتبدأ بقوله:

عَفَتِ الديارُ مَحِلّها ومُقامُها
بمِنَى تأبّدَ غَولُها فرجامُها

ثم يقول في نفسه، وكان اسم حبيبته نوار:

أوَلَم تكن تَدري نَوارُ بأنني
وصّالُ عَقدِ حبائلٍ جذّامُها

تَرّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرضَها
أو يَرتبط بعضَ النفوسِ حِمامُها
بل أنتِ لا تدرينَ كم من ليلةٍ
طلْقٍ لذيذٍ لَهوُها ونِدامُها

وفي فخره بقومه، يقول في المعلقة:
إنّا إذا التقتِ المَجامعُ لم يزَل
منّا لِزازٌ عظيمةٌ جشّامُها
من معشرٍ سنّت لهم آباؤهُم
ولكلّ قومٍ سُنّةٌ وإمامُها
لا يَطبَعون ولا يَبورُ فِعالُهم
إذ لا تميلُ مع الهوى أحلامُها
فاقنع بما قَسَمَ المليكُ فإنما
قَسَمَ الخلائقَ بيننا علاّمُها
وإذا الأمانةُ قُسّمَت في معشرٍ
أوفى بأعظمِ حظّنا قَسّامُها
فهُمُ السّعاةُ إذا العشيرةُ أفظَعَت
وهمُ فوارسُها وهمْ حُكّامُها
وهمُ ربيعٌ للمجاورِ فيهُمُ
والمُرمِلاتُ إذا تطاولَ عامُها

٧ – عنترة بن شدّاد العبسي (... – ٦١٤م)

أدرك عنترة الإسلام، ولم يدرك الهجرة. وقيل إنه عُمِّر طويلا. ويقال إن النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، قال: ما وُصِف لي أعرابيٌ قط، فأحببتُ أن أراه إلا عنترة.

هو عنترة بن عمرو شدّاد العبسي، أمه زبيبة الأَمَة الحبشية، ولم يَعزُهُ أبوه إليه، حتى احتاج إلى شدته في القتال. والقصة معروفة.

إذ نشأ عنترة راعي إبِل في نجد، محتقَراً في قومه، لكنه كان شجاعاً يُضرَب به المثل. أحب منذ صغره ابنةَ عمه عبلة بنت مالك، لكن عمه رفض تزويجه إياها، لأنه عبدٌ أسود. ولم يأنف ذووه أن يستغلوا قوته وبأسه في قتالهم أعداءهم، وكانوا يحرّضونه عليهم، ويطمعونه بعبلة ولا يفون بوعدهم.

وفي مرة أغار حي من العرب على عبس، فاستنهضه أبوه بقوله: كُرّ يا عنترة، فأجاب عنترة: العبد لا يُحسِن الكرّ، بل يحسن الحِلاب والصرّ. فقال له أبوه: كُرّ وأنتَ حر. فأدرك عنترة المغيرين ورد السبي وفيه عبلة. فوفى أبوه بوعده وحرره، لكن عمّه مكث على رفضه تزويجه عبلة التي تزوجت من غيره.

حارب عنترة في حرب داحس والغبراء. وقُتل في قتال بين عبس وطي، سنة ٨ قبل الهجرة (٦١٤م).

وقد اتسم شعره بالحماسة والغزل على الأخص. وقيل إنــه كان يقول البيت والبيتين، حتــى قال معلقته، قصيدته الأولى الطويلة. لم يكن العبسيون يحفلون بشعر عنترة حتى سمعوا معلقته، التي أجاد قولها، فبدّلوا موقفهم منه.

قــال عنترة معلقته بعد حرب داحس والغبراء، ليعاتب عبلــة وأباه وعمه، ويفتخر أمامهم بشــجاعته وكرمه. وهي تبدأ بقوله:

هل غادرَ الشعراءُ من متردّمِ
أم هل عرَفتَ الدارَ بعدَ تَوَهُّمِ

ثم يفخر بنفسه وشهامته، فيقول:

أثني عليّ بما علِمتَ فإنني
سهلٌ مُخالَفتي إذا لم أُظلَمِ
فإذا ظُلِمتُ فإنّ ظُلميَ باسلٌ
مُرٌّ مَذاقَتُهُ كطعمِ العلقَمِ
هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالك
إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي
يُخبرْكِ مَن شهِدَ الوقيعةَ أنني
أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنمِ

إلى أن يقول:

ولقد ذكرتُك والرماح نواهلٌ
مني وبيضُ الهندِ تَقطُرُ من دمي

فودِدتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها
لمعَت كبارقِ ثغرِكِ المتبسّمِ

ثم يخاطب أباه عمراً بقوله:
نُبّئتَ عَمراً غيرَ شاكرِ نعمتي
والكُفرُ مَخبَثَةٌ لنفسِ المُنعِمِ
لما رأيتُ القومَ أقبلَ جمعُهم
يتذامرون كررتُ غيرَ مُذَمّمِ
ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تَدُر
للحربِ دائرةٌ على ابنَيْ ضَمضَمِ
الشاتمَيْ عِرضي ولم أَشتُمهُما
والناذرَيْنِ إذا لم أَلقَهُما دمي

استعين في مراجعة المعلقات كتاب عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج ١، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨١.

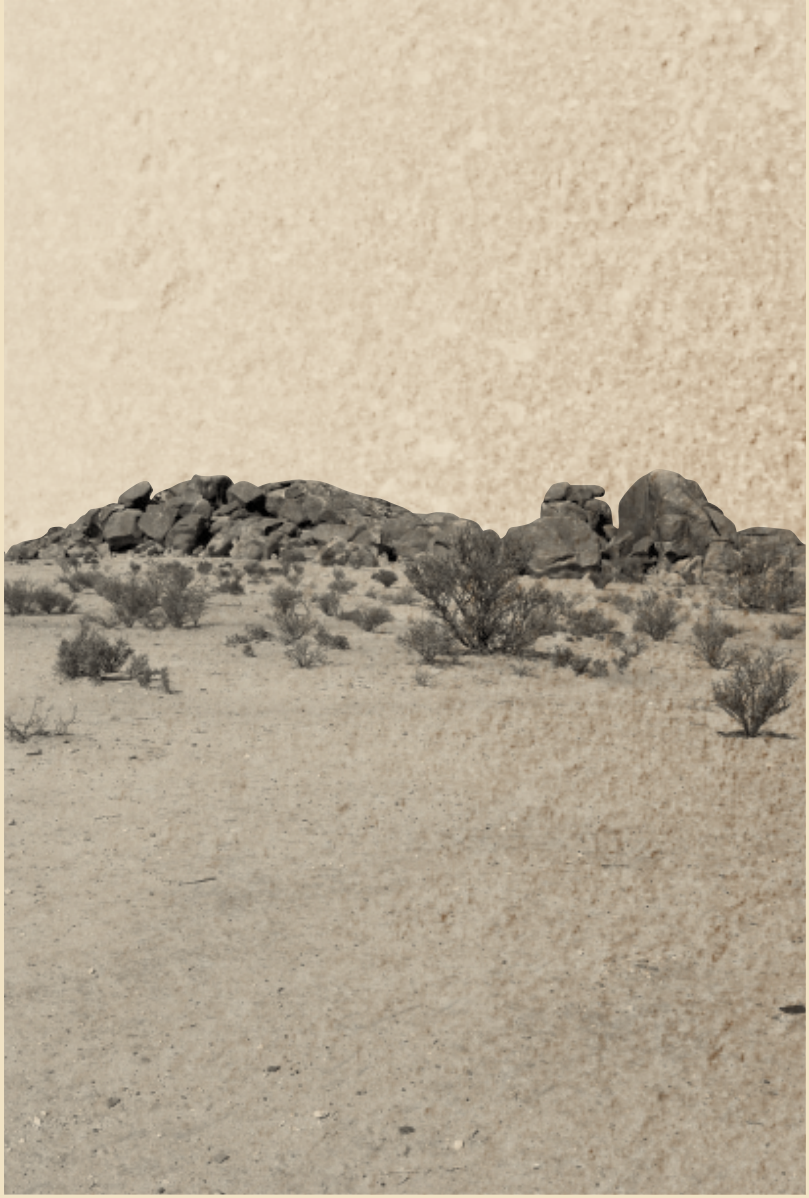

في الشعر

الفصل الرابع

الفصل الرابع
مكان في الشعر

بعد فتنة الحرورية التي قضت على سـوق عُكاظ، وغيّبتها ١٣ قرنـاً، ظلت سـوق عُكاظ فـي ضمير الذيـن عرفوها، وعرفوا معناهـا المحوري في حياة العـرب عموماً، إلهاماً وحنينـاً وحلمـاً يراود من تاق إلى عودة مجـد عُكاظ والعزة التي صنعها للعرب.

لكـن أكثر مـا برز من معانـي عُكاظ، أنهـا صارت عند العـرب، في العصور الحديثة، رمزاً للشـعر وقـوة أثره في الوجدان الشعبي.

ولا شـك في أن عُكاظاً ذُكرت كثيـراً في العصر الحديث عند الشعراء، حتى جاء مشروع إحياء السوق، قبل أربع سنوات، لتشـتعل قريحة عدد من شـعرائنا من جديد في مدح السـوق وفضائلها. وقد أحسن الأستاذ حمّاد بن حامد السالمي صنعاً، حيـن جمع في كتابه: ديوان عُكاظ، الصـادر عن النادي الأدبي الثقافـي في الطائف، سـنة ١٤٢٨هـ، زبدة ما قيل شـعراً في موضوع السـوق. وسـنعتمد على هذا الكتاب في استعراض الشعر الذي أتى على ذكر عكاظ، في عصرنا الحديث.

وأول من يُذكر من شعراء العصر الحديث، ممن جاءوا

علــى ذكــر عُكاظ، شــاعر النيل حافــظ ابراهيــم إذ قال في تشبيه دار الكتب المصرية:

وخطبتُ أبكارَ المعاني منكمو
وزفَفتُها بنفائسِ الألفاظِ
فكأن نجداً والحجازَ عشيرتي
وكأن هذي الدارَ سوقُ عُكاظِ

وفي احتفال أقامــه صاحب جريدة "عُكاظ" المصرية في ٣ ديسمبر ١٩٢٠م، قال حافظ ابراهيم:

أتيتُ سوقَ عُكاظ — أسعى بأمر الرئيسِ
أزجي إليهِ القوافي — منكّساتِ الرؤوسِ
وليلة من عُكاظٍ — ضمت حماةَ الوطَيسِ
أحيا بها ذكرَ عهدٍ — آثارُهُ في الطروسِ
عهد سما الشعرُ فيهِ — إلى مجالِ الشموسِ
وورِدُهُ كان أصفى — من موردِ القاموسِ

أما أمير الشــعراء، أحمد شــوقي، فلم يغب عن باله، وهو يتقبل بيعة أمارة الشعر، أن الشعر عُكاظ، فأنشد قائلاً:

يا عُكاظاً تألّفَ الشرقُ فيهِ
من فلَسطينِهِ إلى بغدانِه
افتقدنا الحجازَ فيهِ فلم نَعْـ
ـثُر على قِسّهِ ولا سحبانِه

ولا غابت فكرة هذه الصلة الوثيقة بين الشعر وعُكاظ يوماً عن بال شـعراء العـرب، حتى صارت رمـزاً وإلهاماً، فيقول محمـد مصطفى حمـام، في وصفه جامعـة أدباء العروبة في مصر، سنة ١٩٧٢م:

أعَدنا وإيّاهم عُكاظاً وسوقَها
ومنا ملوكٌ للبيانِ ومنهُمو
وقد أُلِفَت بين القلوب عروبةٌ
يرِفُّ علينا ظلّها وعليهمو

وفي العام نفسـه، كان الشـاعر السعودي حسن القرشي، في مهرجان الشعر الحادي عشر في تونس يقول:

موئلٌ جمّعَنا عاماً فعاما
وعُكاظٌ بذرى الفكرِ تسامى
ونديٌّ نتغشّاهُ على
فورةِ الشوق فما يروي الأواما

أما الشاعر اليمني أحمد المَروني، فأسف على انفراط عقد عُكاظ كل هذه السنين، ومعها ائتلاف العرب، بقوله:

كم ملأنا صحائفَ الأرض لغواً
وسخِفَنا بسخفه الأذواقا
وفقدنا عُكاظَ سوقَ ائتلافٍ
وأقمنا بخِلفِنا أسواقا

سئمَت لغوَنا النوادي جُزافاً
ورخْصنا تزلفاً ونفاقا

وبعدما أحيا المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز فكرة إقامة السـوق، وأخذت الفكرة طريقاً إلى التخطيط والتفكر والتنفيذ، تحمّس الشعراء، فقال الشاعر السعودي سعد البواردي:

عُكاظُ فيكِ تناغى الجُرْسُ والنغمُ
اليومُ يومُك جَلّ أيها القلمُ
عُكاظُ الضادُ لم تَعقِم وما هرِمَتَ
عُكاظُ الضادُ خِصبٌ بل هي الهرمُ
إطلالةُ الفكرِ من واديكِ خالدةٌ
لا الجهلُ يحجبُها لا الذلّ لا الظُلُمُ

وقال الشاعر محمود عارف:

هذا عُكاظٌ وهو للعُربِ الأُلى
في الجاهليةِ منتدى الأدباءِ
في مطلعِ الإسلامِ لا يَخفى على
أحدٍ بما أعطى منَ الإثراءِ
قولوا لأهل الرأي إنّ تراثَنا
متوافرٌ لكن بغيرِ بناءِ
صونوا التراثَ فيومُ عيدٍ أنْ نرى
فيهِ عكاظاً ثابتَ الإرساءِ

فعُكاظٌ في التاريخِ معلمٌ عزةٍ
لَبلادنا في الحقبةِ العذراءِ

ولحظ الشـاعر أحمـد الغزاوي الخلاف فـي موضع عُكاظ، ورثاها لضياعها، فقال:

شاقني الرسمُ شاخصاً والوقوفُ
تتهجّى الأقلامُ فيهِ السيوفُ
بين فخٍ وبين وَجٍ وسلعٍ
والعوالي رفارفٌ ودفوفُ
ألفُ عامٍ خلت وبعضُ قرونٍ
وعُكاظٌ يلَوي به التعريفُ
جهلوهُ وما دروا عنهُ حتى
زاد فيهِ الخلافُ والتكييفُ
هل سلا عنهُ أهلُهُ وهو منهم
منهلٌ سلسلٌ وظلٌ وريفُ

أما نزار قبّاني فاشتكى وتذمّر من حال العرب، فكان لعكاظ نصيب في شعره حين قال:

كلَ عامٍ نأتي لسوقِ عكاظ
وعَلينا العمائمُ الخضراءُ
يا عصورَ المعلقاتِ مَلَلنا
ومن الجسمِ قد يملّ الرداءُ

نصفُ أشعارِنا نقوشٌ وماذا
ينفعُ النقشُ حين يهوي البناءُ
الدواوينُ في يدينا طروحٌ
والتعابيرُ كلُّها إنشاءُ
ما هو الشعرُ حينَ يُصبحُ فأراً
كسرةُ الخبزِ همّه والغِذاءُ

وحين أخذت فكرة إحياء الســوق تتحرك بجد، ابتهج الشاعر إبراهيم علاف واستبشر، فقال:

بين جنبيّ طائرٌ خفّاقُ
مستهامٌ تؤزّهُ أشواقُ
ظل يرنو إلى عُكاظ طويلا
قَد تلاشت لفجرِها الأغساقُ
حيث كانت خطى العروبةِ يوماً
تتلاقى وتُنصتُ الآفاقُ
وسْطَها كانتِ البلاغةُ تطغى
يتملّى فنونَها الحُذّاقُ
نِعمَ ماضيكِ يا عُكاظُ مجيداً
سوف يُحييهِ حاضرٌ برّاقُ
ستكونين منبراً لقلوب
وعقولٍ عطاؤها سبّاقُ

ستكونين للقريض شفاءً
وَوفاءً فحالُهُ إشفاقُ
ستكونين للتفرنج رصداً
جَهبَذياً فتَصلُحُ الأذواقُ
ستكونين للفنون ربيعاً
فيهِ للروحِ سلسلٌ دفّاقُ
ستكونين للتعصّب حرباً
لقَضايا علاجُها ترياقُ
ستكونين للتضامن فتحاً
يتَولّى اكتمالَه ميثاقُ
ستكونين صحوةً للبرايا
يا لَصُهيونَ سعيُها إخفاقُ

ولم تكن حماسـة الشاعر حسين عرب أقل، فقال في إحياء السوق:

أرجِعوهُ لمجدِهِ ومكانِه
وارفعوهُ عن عهدِه وزمانِه
واصنعوا في رحابِهِ مهرجاناً
يستنيرُ الزمان من مهرجانِه
واسألوا في عُكاظ قيثارةَ الشّعـ
ـرِ تُجِبْكُم بالعذبِ من ألحانِه

وطنُ الضاد قد دعاكُم فلبوا
من محيطاتِه إلى خلجانِه
يصلون التراث متصلاً من
عهدِ قحطانِهِ ومن عدنانِه
ويفيضونَ من بيانٍ نقي
مستمدٍّ كالنهرِ في فيضانِه

وقال الشاعر مطلق الثبيتي:
أفيضي علينا ربّةَ الشعرِ بالشعرِ
وكونيَ على قلَبي أحرَ منَ الجمرِ
وهاتي القوافي مرسَلاتٍ دوافقاً
مَعينٌ قوافيها من القلبِ والفكرِ
وأَلقي على سمعِ الزمانِ قصائدي
وغنيَ بشعري وانسبيني إلى شعري
فيا أمةً أحيَت عكاظَ وشيّدت
بياناً وأحيَت روضَها عاطر النَشرِ
وكانت لها حسنُ الخصالِ قلائدٌ
من البرِ والإحسان ليست من الدرّ

ويخاطب الشاعر بهاء بن حسين عزي السوق في شعره فيقول:

يا عُكاظاً! والهَتفُ من عمقِ نجدِ
أنا ذو التَاجِ صِنوُ عرشِ البيانِ
إيتِ للشعرِ بالجبالِ وبالوَر
دِ وصَفقِ التّجّارِ ذا صولجانِ

ثم يأسى للإشاحة عن سماع شعر عكاظ، فيقول:
واللهِ ما استمعوا لشعرِ عُكاظِه
وتأمَلوا الإبداعَ في بُنيانِهِ
ورأوا قضاةَ الشعرِ حين تهيّأوا
لَلحكمِ أحكمَهُ مدى إتقانِهِ

ويقول عبد الله بن عبد الكريم العبادي:
في عُكاظٍ كم بها من أثرٍ
مشرقٍ تاريخُها لا يندثِر
هذه الطائفُ والتاريخُ فَي
كلّ ركنٍ من حِماها قد سُطِر
ويقول الشاعر عبد الله بن محمد بن جبير:
هذا عُكاظٌ (...) أعيدَ موسمُه
فيهِ الأميرُ وفيهِ السادةُ الصيدُ
وإخوةُ الحرفِ إذ فاضتْ قرائحُهم
بالمستجادِ وقلنا طِبتمو زيدوا

ويقول الشاعر حسن بن محمد الزهراني:

عُكاظُ ما زال على رفرفٍ
خضرٍ ووشمٌ المجدِ لا يُجهَلُ
لعادياتِ البوحِ في ثغرِه
مضمَارُ شوقٍ وجهُهُ أشهلُ
ذاكرةُ التاريخِ مملوءةٌ
من عبقري الشعرِ تستنهِلُ

ويقول الشاعر مسفر بن مَعجبَ الزهرانَي:

وهناك سوقٌ عُكاظَ رمزُ حضارةٍ
متوهّجٍ كاللؤلؤِ البرّاقِ
ما زلتَ يا سحرَ الإلهِ قصيدةً
منقوشةً بالتبرِ في الأعماقِ

زيارة

الفصل الخامس

سرقة بنك

الفصل الخامس
زيارة سهوة عكاظ

يبعد موقع السوق ٤٠ كيلومترا من الطائف.
وأول الطريق جبلية، لكن حين تدخل الطريقُ منطقةَ سهل فسيح، يحسّ المسافر أنه صار في حضرة عُكاظ، التي قرأ عن انبساط موقعها واتساعه الكبير.

إذن هنـا أو بالقـرب من هنا، جلـس النابغة الذبياني، وأصدر أحكامـه التي جعلت المعلقـات معلقات، وانتقت أعظم شـعر العرب، ليصير في رأي العارفين الأجانب، قبل العـرب، من أخلـد ما أولدته قرائح شـعراء البشـر على مر العصـور. ما أعظم ذلك الذي جعل نفاسـة الشـعر ميزانه الوحيـد، فخـرج مـن خيمـة الانتمـاء القبلـي والمصلحة الشـخصية والدهاليز الضيقـة، وأصدر حكماً صـار بمثابة حكم التاريخ في أعظم الأدب. إنه نابغة بحق.

وهناك رثت الخنسـاء كليبـاً أخاها، بين جموع القبائل العربية التي جاءت تبيع وتشتري، ثم تسمع الشعر.

وهنالـك احتربـت القبائل فـي حـروب الفِجار خمس سـنوات، لتبقى قوافل التجارة الدولية عبر شـبه جزيرتهم، خالصـة للعـرب، تحت زعامـة قريش، وإيلافهـا، فلا تمتد

إليها يد من خارج.

هنـا إذن صُنِع فصل محـوري من تاريخ العرب الأدبي والاقتصادي، وهنا أخذت تتكوّن ملامح وجدانهم الثقافي ووعيهم السياسـي. وهنا ذابت فروق لهجاتهم، ليسِّر الله فهمهم الوحي، الذي أرسل بلهجة قرشية فصحى.

وهنا شهد الرسول الأعظم مشاهد القبائل المجتمعة في الموسم، قبيل المبعث.

فهل ثمة أماكن كثيرة بهذا الجلال في دنيانا؟

إن مجـرد التفكيـر بكل هـذه الأعمـاق التاريخية التي يكتسبها الموقع، يبعث القشعريرة في النفس، حين تطل على هذا المنبسط الشاسع من الأرض، الذي لا يكاد يغيب اللون الأخضر عن امتداده الواسع.

السـهل خالٍ من التضاريس والوديـان التي يمكن أن تسـوق الماء لتنحصر في مسـاحة ضيقة، لذا حين تمطر، وهـذه منطقـة مطيرة نسـبياً، يحار الماء فتـرى بقع الماء تحت أشـعة الشـمس كأنها لآلـئ، تلمع فـي كل الأنحاء. فتتشبع الأرض ماء، وينبت الزرع.

لكنـه ليـس من أي نوع مـن الزرع، بل هي حشـائش وشـجيرات صغيرة القامة. لكنها ممتـازة لرعي الإبل التي تكثر في السهل. ولها سوق تباع فيها الإبل وتُشترى.

أول مواقـع يزورهـا الزائـر الأُثَيْـداء، وهـي موقع

فيــه صخور أشــبه بالنُصُــب المنحوتة، بأشــكال جميلة التكويــن، تظلِّل كهوفاً تغري بالاســتلقاء، لكن أغرب ما في تشــكيلة الصخور في موقع الأثيداء، ذلك المســرح الصخــري الطبيعــي الذي ينبســط أمام هــذه الصخور، وكأنــه، على ما يتكهن المؤرخون، كان المنبر الذي يقف عليــه الشــعراء ليلقــوا قصائدهم أمام الشــاعر الحكم، النابغة الذبياني أو غيره.

أين كانت إذن قبة الحَكَم، وكان لا بد من أن تعلو على منبر الشاعر؟

لعلهــا نُصِبَت فــوق أعلى الصخور هــذه، ليُطل منها الحكم على الشــاعر وعلى جمهوره معاً، وكأنك في محفل عصري حسن الهندســة جيد التنظيم. ما كان أسبق هؤلاء القوم إلى كل هذه القيم!

هنا رســت آراء المؤرخين. فهذا أوفر الأماكن حظاً في أن يكون المكان التاريخي الذي قام فيه منبر الشــعر الأول في تاريخ البشر. ففي هذا الموقع تقاطعت خيوط الوصف الجغرافي الذي اهتدى به المؤرخون من خلال القصائد التي وصفــت المكان في المعلقات وغيرها، ومن خلال روايات الإخباريين العرب الأوائل الذين شــهد بعضهم السوق في سنوات القرن وثلث القرن الأولى في الإسلام، ثم تووِرثت الروايات عند اللاحقين مــن المؤرخين العرب، فبقي بذلك

لنــا الوصــف الجغرافي الذي استرشــد به مؤرخونــا اليوم لترجيح مكان السوق.

حيــن ينظر الزائر إلى الســهل، يبدو لــه ناحية الجنوب جبــل الحضن، الذي قيل فيه: من شــاهد حضناً فقد أنجد، أي ان هذا كان الحد الفاصل عندهم بين الحجاز ونجد. وإلى الشــرق جبل العبــل، وخلفه العبيلاء، وهــو جبل أصغر من العبــل وهــو أبيض اللون، ولذا اتخذ تصغير اســمه اســماً لــه. وإلى الجنوب الغربي، جبل الصالح. أما ناحية الشــمال الشرقي، فجبل الخَلَص ولونه أسود، وبقربه الموقع الآخر الذي اشتَبه المؤرخون في أن يكون فيه موقع سوق عُكاظ. وقــد رَجَحت أخيراً كفــة الأثيداء، على الرغــم من أن القول القاطع لم يصدر عن العلماء، مع ترجيحهم هذا. والظن أن السوق كانت في الجاهلية تقام كل عام في مكان، لاتساع السهل، وكثرة الناس الذين يؤمون الموسم. ولذا اختلفت الآراء. لكــن المســرح الصخــري لا يوحــي فقــط بتفضيل الأثيــداء، بــل يغري أيضــاً بهذا التفضيل، مــع قول العلم. فمن يرَ ذلك المســرح لا يمكن أن يشيح بفكره عن تشبيه المكان بخشــبة مسرح تعلو مقاعد المشاهدين. ومن هذا المــكان ترى مزارع النخيــل حيث الواديــان، وادي الأخيضر ووادي شــرب، اللــذان ذكر المؤرخون ان ســوق عكاظ يقع قرب ملتقاهما.

إنه المكان!

يمِّـم صوب جبـل الخَلَص، وتوقَّف فـي الطريق عند قلعـة العرفاء، وهي قلعة موغلة فـي القدم، كانت خراباً، ورُمّمت على رسـم أُسُسـها الباقية في الأرض، وبالحجارة نفسـها التـي كانت، وبأَسـاليب البناء نفسـها، أي رصف الحجـارة بعضها فوق بعض، من دون ملاط يشـدّها. إنها بالفعل من عجائب ما أبدعه عقل المهندسين القدامى في البنـاء، من دون أن يتسـلحوا بما نعرف اليوم من وسـائل العمارة الحديثة وأدواتها وموادها.

لم تنته المشاهد، على طول الطريق إلى الخَلَص!

فقد انتصبـت على هذه الطريـق مجموعة أخرى من الصخـور، جميلة التكوين، تسـمَّى السـرايا الحمراء، نقش عليها القدامى نقوشاً فيها الأدعية وفيها الأسماء، بل فيها رسم شهير من عصور موغلة في القدم، تمثل ذئباً ورجلاً، على عادة سـكان الكهوف الذين كانوا يجلَون الحيوان، ولا سـيما المفتـرس. في تلك المجموعة مـن الصخور كهف كبيـر لا تـزال في سـقفه نقـوش عديدة. وكانـت هوازن، علـى ما يقال، تُجلّ تلك الصخور وتتعبد عندها جهاراً، قبل اهتدائها إلى الإسلام.

وفـي الخَلَص حيـث كانت أولـى المنشـآت الحديثة لإحياء السـوق، ترى قبة النابغة والخنسـاء والخيام الأخرى

التي عادت إليها أصداء الشعر تتردد، في رحلة يراد لها وبها أن تزدهر من جديد مواسم العرب، التي بشرت بنهوضهم.

ذلك هو سوق عكاظ.

* * *

أمـا النزول من الطائف إلى جدة، من طريق «الجبل»، أي الهدا، فقصة أخرى.

فمن على السـهل المرتفع، الـذي تقعد عليه عُكاظ، تنـزل الطريق مـن هذه الناحيـة، في منحدر سـاحر، قلما يُـرى مثيلٌ لـه. فمع تعرّج الطـرق المرصوفة بمواصفات ممتـازة، كالثعبـان المتلـوي علـى بطـن الجبـل، تأخذك الدهشـة لمشـهد تلك الجبال الشـديدة الوعـورة، وكأنها خرجـت للتو مـن فوهة بـركان، فلم يمسسـها بعد تآكل سـوى تلك الأخاديد التي خدّتها سيول على جنباتها، وتلك الطرق التي عُبِّدَت لتسلقها. ما عدا ذلك، لم تهذبه عوامل الزمن، ولم تقلّمه رياح.

إنه المشهد الذي لا يُنسى، قبل الوصول إلى السهل، وادي نعمـان، وهو ينبسـط بيـن الجبال علـى جانبيه، في طريق العودة إلى جدة.

الفصل السادس

الفصل السادس
كتبها عن عكاظ

لقد سـلف ذكر ما قيل قديماً على أرض عُكاظ، ولا سيما المعلقات السبع الخالدة.
ويذكر هـذا الفصل مـا قيل فـي العصـور الحديثـة، وما كتبه الأدبـاء والمؤرخون، عن سـوق عُكاظ، الرمـز والحلم والذاكرة، والمكان والموقع أيضا.
وقد نشـطت الكتابة في شأن السـوق، مع جهود إحيائها، وصدر عدد من الكتب، اسـتحوذ فيها الجـدال حول موقع السوق التاريخي، على نصيب كبير.

وفيما يلي بعض أهم الكتب الحديثة التي صدرت في المملكة، في شأن سوق عُكاظ.

سوق عُكاظ، لمحمد موسم المفرجي.
وهو مجموعة مقالات، جمعها المؤلـف، في أمر النقاش الـذي كان عـن موقـع السـوق، والآراء فيه، وهو سـجال وقع سنة ١٤١٥هـ، قبل إحياء السـوق بنحو ١٣ سنة. وصدر الكتاب سنة ١٤١٧هـ.

وكان الملك فيصل بن عبـد العزيز، يرحمـه الله، هو المبـادر قبل أكثر مـن ٣٥ عاماً إلـى المسـألة، بالحث على تدقيـق معرفة مـكان السـوق، لأن أمر إحياء السـوق في موقعها التاريخي الصحيح، كان شاغلاً باله.

يشـير الكاتب إلى أن الشـيخ فهـد المعطاني شـيخ

قبيلة الصلمـان من هُذيـل، كان مصـراً على أن السـوق موقعها في وادي نخلـة. أما هو فيرى أن النـص التاريخي يشـير إلى موقع «بيـن نخلـة والطائف». ويستشـهد في قول ذلك، أرجوزة عيسـى بن أحمد الرداعـي، الذي وصف طريق الحج، من صنعاء إلى بيت الله الحرام، وفي الوصف ذكـر لمواقع منهـا: أوقـح وكلاخ وجلـدان وقُرّان وشِـرب والمناقب، وكلها مواقع. كذلك استشـهد ياقوتاً الحموي صاحب معجم البلدان، وكتاب سـعيد الأفغاني: «أسـواق العرب»، والكميت بن زيد الأسـدي وغيرهم، وعلى رأسهم الشـيخ محمد بن بليهـد الذي أمضى ١٤ سـنة بيـن ١٣٥٥ و١٣٦٩هـ، في البحث عن الموقع الصحيح.

وتتوالى المقـالات، فيؤيـد مناحي ضـاوي القثامي عضـو نـادي الطائـف الأدبـي، المفرجـي، ويعـارض رأي المعطانـي، لاسـتناد الأول إلـى «الحقائـق العلميـة». فيـرد الشـيخ المعطانـي بمقالـة، ويـرى ضـرورة أخـذ التواتـر الشـفاهي حجة مـع الشـعر القديم، ويشـك في اسـتقراء المفرجي أرجوزة الرداعي. ثم يذكر أقـوالاً للبكري والسيوطي والجوهري صاحب الصحاح واليعقوبي صاحب التاريخ وابن حجر صاحب فتح الباري والأزرقي صاحب تاريخ مكة وابن حبيب صاحب المحبَّر، تؤيد ما ذهب إليه.

ويـرد القثامـي، فيشـك فـي حجـة التواتر الشـفاهي

ويتحدى أن يكون في الشعر الجاهلي والإسلامي الأول، ما يؤكد أن سوق عُكاظ كانت في وادي نخلة. ويشتد الجدال، مع إسهام جويبر الثبيتي، فيرى في مقالة المعطاني تصحيفاً لموقع الأثيداء ليصير: الأثيباء، ولموقع البوباه ليصير: البهيتاء، وتحويلاً لسوق عُكاظ من كونها لهوازن، إلى كونها لقريش. ثم يدلي عاتق بن غيث البلادي بمقالة يعارض فيها مقالة المعطاني أيضاً، فيتحفظ عن الأخذ بلا حدود بالتواتر الشفاهي، ويؤكد شواهد يقول إن الشيخ المعطاني تجاهلها، ويأخذ عليه حججاً ليست منطقية في رأيه.

وأما «علاّمة الجزيرة»، المرحوم حمد الجاسر، فلا يتردد في القول إن وادي نخلة ليس قطعاً موقع سوق عُكاظ. فالمكان يجب أن يكون متسعاً لاجتماع القبائل. واستشهد الجاسر بكتاب أبي عبيد البكري: معجم ما استعجم، وقصيدة الرداعي، السالف ذكرها. ومقالته حاشدة بالشعر الذي يدعم قولته.

ويتدخل في الجدال باحث من هوازن، هو محمد بن سلطان العتيبي، من قسم الآثار بجامعة الملك سعود. فيذكر أصحاب الفضل السابقين الذين أثروا البحث في الموضوع، وهم: محمد بن بليهد (صحيح الأخبار عما في بلاد العرب)، وحمد الجاسر (موقع سوق عُكاظ)، وعبد الله بن خميس (المجاز)، وناصر الرشيد (سوق عُكاظ في الجاهلية

والإسلام) وخليل المعيقل. ويستشـهد نصوص حرب الفجار الثانية، ليخلص إلى أن نخلة كانـت لقريش، فيما كانت عُكاظ لهوازن، فلا يجوز أن تكون إحداهما في أرض الأخرى. ويلاحظ العتيبي أن أطلال قصر مشـرفة التي ظنها البعض أنها بقايا السوق عمرها ٢٥٠ سـنة فقط، وليست من العصر الجاهلي. ناهيك بأن السـوق كانت تنتصـب في خيام موسـمية على سهل متسع، ولم تكن لها مبان في موقع معين.

ويختم صاحـب الكتاب كتابـه، بمقالة لـم تصدر في ملحـق جريـدة النـدوة الأدبي، بـل فـي أول أعـداد مجلة الدارة، سـنة ١٤١٥هـ، كاتبها د. خليـل إبراهيـم المعيقل، تؤيد بالمراجع والمصادر مقالة المفرجـي، وتنقض مقالة المعطاني فـي موقع السـوق. ويجعـل المعيقـل موقع السوق «في أرض متسعة يحدها من الجنوب ملتقى وادي شِـرب ووادي الأخيضـر... والعبلاء، تعـرف الآن بالعبيلاء. ومن الغرب جبال الصالح وجبال مدسـوس، ومن الشمال الشـظفا والخلص ومشـرفة، ومن الشـرق الدار السوداء والحَـرَّة أو... صحراء ركبـة». ويجعل اتسـاعها ٤ كيلومترات مـن الجنوب إلـى الشـمال، وكيلومتريـن من الغـرب إلى الشرق.

إنه كتاب مفيد في وضع الخطوط العريضة للسـجال الذي انتهى إلى تعيين موقع السوق التاريخي.

معجم الأماكـن الواردة في المعلّقات العشـر، لسـعد بن جنيدل

صدر عن مركز حمد الجاسـر الثقافي في الرياض، سـنة ١٤٢٥هـ. وهو مفيد جداً من حيث منهجه، إذ يلحظ في مقدمة الكتاب، أن الاسـم الجغرافي قد يكون لمسميَين أو أكثر، وأن أسـماء المواضع تتبدل مع الزمن، أو تتحوّر أو تـزول. ولذا نبّه إلى ضرورة سـعي المدققين الباحثين عن موقع جاء ذكره في النصوص القديمة، في استشهاد الروايات المختلفة للمقارنة والتمحيص، وعدم الاكتفاء بمستند وحيد.

لكننا لـم نعثر على شـيء من أسـماء مواقع سـوق عُكاظ الأساسـية، مثل: الأثيداء أو جبل الحضن أو العبيلاء أو الخَلَـص فـي هـذا المعجـم الممتـاز. وليس هـذا عيباً في الكتـاب، فقـد لا يكون لـكل هـذه المواقـع ذكر في المعلقات. غير أن منهج الكتاب سـليم فـي تنبيه الباحثين عن موقع السوق، أو أي موقع آخر مذكور في نص قديم.

ديوان عُكاظ، لحمّاد بن حامد السالمي.

ظهر هذا الكتاب المهم في سـنة ١٤٢٨هـ، السـنة نفسـها التي أحيت فيهـا المملكة سـوق عُكاظ وأنشـأت جائزتها، بعد مضي ١٢٩٩ سـنة هجرية على إقلاع العرب عنها. وهو لا يُستغنى عنه إذا شـئنا إجمال ما قيل شـعراً في التفاخر

بعُـكاظ ومكانتهـا الرمزيـة منبـراً للشـعر ديـوان العرب، والتأسـي على هجر السـوق وما تفعله من اجتماع العرب فيها. وتضمن الكتاب كذلك شـيئاً مما قيل من شـعر في السـوق بعد إحيائها. لكـن عرض أجمل ما قيل من الشـعر في عُكاظ، جاء بيانه في فصل آخر.

سـوق عُكاظ من ذاكـرة التاريخ إلـى بهجة الحيـاة، د. هند صالح با غفار

نشـرت إمارة منطقة مكة المكرمة هذا الكتاب، في سـنة ١٤٢٨هـ، سنة ظهور كتاب السـالمي الآنف ذكره، وتضمن كثيراً مـن الأشـعار التي جـاء فيها ذكـر عُكاظ في الشـعر الحديث، مـن مثل شـعر أحمد شـوقي وحافـظ إبراهيم، والشـعراء السـعوديين. لكن الكتاب تضمن أيضـاً لمحات تاريخية عن شـعراء المعلقات ونصوص المعلقات نفسها كاملة، على نحو يفيد مـن يبتغي هذا الجمع من النصوص والتعريف بأصحاب المعلقات وتاريخهم، إضافة إلى ما جاء على ألسنة شعراء العصر الحديث.

ويتضمن الكتاب كذلك قصة المسـعى الرسمي في إحياء السـوق، وأسـماء المسـؤولين وأعضاء اللجان التي عملت في هذا الجهد، لتعـود الحياة إلى عُكاظ، في سـنة ١٤٢٨هـ، بعد ١٢٩٩ عاماً هجرياً.

سوق عُكاظ الرمز والتاريخ، مناحي ضاوي القثامي

صدر سنة ١٤٢٨هـ. وقدم له الدكتور جريدي المنصوري الثبيتي، أمين مؤسسة سوق عُكاظ العام، فاستغرب ظاهرة ضياع المواقع، ومنها موقع السوق واحتدام الجدل فيه. وسمى هذا الضياع: هجرة الأمكنة. وأعلن اغتباطه لعودة الحياة إلى السوق في موضعها التاريخي.

يتناول الكاتب موقع السوق، فيعرض الجدال فيه، ثم تاريخ بدء السوق ويؤيد الرأي القائل إنه أول القرن الميلادي السادس. وفي فصل ثالث يعرض الكتاب مجالات السوق وما كان يجري فيها، من أدب وتجارة وعقود بيع وشراء وتعارف وتفاخر وسماع خطب وحكم. ويقول: "كان سوق عُكاظ يحتوي على كل نواحي النشاط الإنساني في الجزيرة العربية اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً ودينياً، وكذلك من خارج جزيرة العرب".

وفي فصل طويل يرى الكاتب أن السوق مهدت لظهور الإسلام بتوحيد لهجات اللغة، والدعوة فيها، ونشر العادات السليمة، وأن النبي صلى الله عليه وسلّم طاف بأسواق العرب ليبلّغ رسالة الإسلام، ثم روى الكاتب في هذا شيئاً من السيرة النبوية، ومنها إشادته صلى الله عليه وسلّم، بقس بن ساعدة. كذلك روى بكائيات هند بنت عتبة على قتلى قريش في بدر.

وفي الفصل الســادس، تناول الكاتب عُكاظ والشعر، ثم في الفصل السابع المواقع المجاورة لعُكاظ.

عُكاظ وحي الإبداع وتجليات الوعي، لعالي سرحان القرشي وعاطف السيد بهجات

يتمم هذا الكتاب رباعية الكتب التي صدرت في ســنة إحياء الســوق، ١٤٢٨هـ. وجميعها، إلا كتاب باغفــار، صدرت عن نادي الطائــف الأدبي الثقافــي، وكَتَبَ لها مقدَّمــاً، رئيسُ النادي آنذاك، الدكتور المنصوري.

ومع ان الكتاب فــي فصلين فقط، إلا أنــه مفيد في التعمــق بمعاني الســوق ومــا كان فيها من نشــاط. فهو يعرّج علــى الدلالة الرمزية فيها، لا ســيما فــي كونها مهد هوية ثقافيــة عربية. ويتنــاول الحرب والإقبــال عليها وكره الذهاب إليهــا، ثم فضائل الاحتشــاد والتجمع، ومحاســن الفخر والمــدح، وما أحدثــه الإقلاع عن إقامة الســوق من وهن فــي اجتمــاع الأمة. وعــرض نتفــاً من أفضــل النقد الأدبي الذي كان يرتقي من جراء التباري في الشعر.

عُكاظ الأثر المعروف ســماعاً المجهول مكاناً، لعبد الله بن محمد الشايع

سبق كل هذه الكتب، إذ صدر سنة ١٤١٦هـ. وهو غزير مادةً

وممتاز تنسـيقاً وتبويباً، وينتهي إلـى أربعة فهارس مفيدة جداً: محتويـات الكتاب، والمصـادر والمراجـع، والأماكن، والخرائـط والمناظر. ويُلمّـح كاتبه في مدخـل البحث، إلى أنه كتبه تحت وطأة اختلاف الـرأي الذي بدا له في مقالات صحافية، عن موقع السـوق. وكانت المقـالات بدأت في الظهور في السنة السـابقة، ١٤١٥هـ، ولذا خصص الكتاب للحسم في هذا الأمر، لا غير.

ولذا قسم الآراء في مكان الموقع إلى ثلاثة، ومحّص فيها على نحو علمي دقيـق. فبذل صفحات فـي كل رأي. وهو يشرح أحد أهم أسـباب الالتباس في فهم النصوص الجغرافية التي جاء بها القدماء، وهو أن المفسـرين خلطوا بين قرية عُـكاظ «ذات المبانـي والنخيل»، وبين السـوق، وهي في سـهل رحب. وقد انحاز الكاتب إلـى آراء محمد بن بليهد وحمد الجاسـر، ونقض نقد ناصر الرشـيد لهما، في كتابه: «سـوق عُكاظ في الجاهلية والإسلام». وبدا الشايع في تمحيصـه كل رأي كمـن يقلب كل حجـر يصادفه ليرى ما تحته. ولم يكتـفِ بالآراء، بل زار المواقع وسـأل الناس، واسـتطلع واستشـرف واسـتقصى على المـكان. بل انه سـار الرحلة التي وصفها الرداعي فـي أرجوزته، ليقف على المسـافة والمواقع الموصوفة فيها، على طريق الحج من صنعاء.

وبنتيجة تفريقه في النصوص بين قرية عُكاظ وسوق عُكاظ انتهى إلى حدود السوق وفق ما يلي:

من الجنوب أكمة العبلاء.

من الغرب صخور الأثيداء.

من الشمال والشمال الغربي وادي الأُخَيضِر وعين خلص.

من الشرق الحُرَيرة.

وتأكيداً لمنهجه العلمي الدقيق، خص الكاتب قرية عُكاظ بفصل، لأنها سبب الالتباس في تعيين موقع السوق، ثم الطائف القديمة بفصل آخر لتعيين موقعها. وبذل جهداً في ذلك مثلما بذل في تعيين موقع السوق نفسها، من تدقيق نصوص ومعاينة أماكن.

المعجم الأثري لمحافظة الطائف، لناصر بن علي الحارثي

الناشر: لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي، محافظة الطائف. صدرت الطبعة سنة ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

يفيد الكتاب، وهو كما يبين عنوانه دليل للآثار الباقية في محافظة الطائف، الباحثين الأثريين في مناطق شهدت الكثير من المشاهد الإسلامية الباكرة، والحوادث السابقة للإسلام أيضا. وهو إذن ليس مخصصاً لعكاظ، ولا لسوقها. ويرد ذكر عكاظ في خمس من صفحات

الكتاب وهي ١٤٦ صفحة.

ص ١٧: الأُثَيداء صخور على شـكل ثدي، شمال شرق الحوية في الموضع الـذي اختير أخيراً، ليكون مقراً لسـوق عكاظ، بجوارها صخور عليها نقوش إسلامية مبكرة، تحمل أسـماء أشـخاص احتموا في ظل هـذه الصخور فـي أثناء سفرهم في المنطقة.

ص ٦٩: سـوق عـكاظ، أشـهر أسـواق العـرب فـي الجاهلية وصدر الإسلام، اختلف الباحثون قدماء ومحدثين فـي تعيين موضعهـا، وتعـددت الآراء حول ذلـك، فقيل: شـرق الحوية، وقيل: في السـيل الكبير، وقيل: في جنوب الطائـف، وقيل: في عشـيرة، وقيـل غير ذلـك، ثم عينت موضعه لجنة أنشـئت لهذا الغرض أخيراً، فجعلته شـمال شـرق الحوية، ولا يزال موضعـاً للخلاف. دمرتـه الحرورية عام ١٢٩م، ومنذ ذلك الحين لم تقم السوق التي لم يكتف العرب فيها بالبيع والشراء، بل كانت منتدى العرب الأدبي.

ص ٧١: خريطـة سـوق عـكاظ، وفيهـا شـكل شـبه مسـتطيل، يمتد من الجنوب إلى الشـمال نحو ٣٥٠٠ متر، ومن الشرق إلى الغرب، نحو ٢٥٠٠ متر. تحدها من الشمال الحريرة، ومزرعـة الملك خالد بـن عبد العزيـز، يرحمه الله، ومن الجنوب العبـلاء وقرية صلبة وقرى عـدوان. وأما من الشـرق فأرض فضاء، ومن الغرب شـعيب الأخيضر. وفي

خريطة مصغرة، يبدو موقع السوق إلى الشرق من الطريق بين الطائف والحوية، المتجهة إلى الرياض. والسوق على مسافة ١١ كيلومتراً شرق الطريق، من المخرج ٥٦.

ص ٧٢: عن قرية شويحط، وهي قرية مندثرة في أسفل وادي جليل، غرب جبل قرن بني حسن، وقد ورد ذكرها في الكتب الحديثة، بهذا الاسم، على أنها في الأرجح، كانت هي سوق عكاظ، وهذا غير صحيح.

ص ١٠٩: متحف عكاظ للتراث الشعبي، متحف أنشأه خلف الله القرشي في منزله في الطائف، وعلاقته بالسوق اتخاذه اسمه منها، وحسب.

المعجم الجغرافي لمحافظة الطائف، لحمّاد بن حامد السالمي.

مجموعة من ثلاثة مجلدات، وضعها السالمي، رئيس نادي الطائف الأدبي والثقافي، واضع كتاب: ديوان عُكاظ. وهو سفر ممتاز لمن يريد معرفة الأماكن والمواقع والجبال والوديان والسهول والقرى، لكنه يعرّف أيضاً بالمؤسسات الثقافية والنوادي، فلا يترك لسائل عن منطقة الطائف سؤالاً بغير جواب.

ومن يرد معرفة للأماكن في منطقة عُكاظ، يجد فيه ما يفيد، حتى في الشوارع وأسمائها.

ويُذكر للسـالمي أنه والدكتور جريـدي المنصوري من المسهمين في إحياء سوق عكاظ في الثقافة والنشر، في مرحلة إحياء مهرجان السوق.

وقـد اعتنـى السـالمي فـي عملـه رئيسـاً للجنـة المطبوعات في التنشـيط السـياحي بمحافظـة الطائف، ورئيسـاً للنادي الأدبـي الثقافي فـي الطائف، لنشـر عدد من الكتب، تتناول محافظة الطائـف والتعريف بمواقعها ومعالمها الثقافية والسياحية والأثرية.

سوق عكاظ

174

إنهـا عنقاء الجزيرة العربيــة، ذلك الطائر الذي قام من رماده ليَبعث مجداً تليداً صنعه التقاء العرب في مواسمهم، لعل هذا الدم الجديد الذي أحيا السوق، بشِعرها ومواسمها والتقــاء الأحبة فيها، يُلهم الناس إلى طريق الغد المشــرق بإذن الله، مثلما أراد أصحاب الإحياء، باعثو سوق عُكاظ.

قصة الســوق إذن، مثلمــا تروي لنا كتــب الأقدمين والمحدثين من كُتّاب العرب والإسلام، وكبار الباحثين اليوم في المملكة، وشــعرائهم علــى مختلف الحقب والعصور، هي قصة تتخطى حدود المنتدى والمنبر، فالســوق أعظم مــن هاتيــن المهمتين الجليلتيــن، في أنهــا ملتقى عيش مشــترك، وَحَّد القلــوب، وألّف العقــول، وجمع المصالح والمشــاعر معاً، بل انها ملتقى المشــروع الواحد، الواعد، الواقــد للشــعلة والمنــارة. إنها فكــرة تبدو فــي حقيقتها بعــد التدقيق، أكبر مما قد يظن صاحب النظرة الســريعة، لأن عبقريــة الاجتمــاع في الســوق تنطوي في بســاطتها وضرورتها على معانٍ كبيرة.

نعم، ســوق عُكاظ، مهرجان لسماع الشعر والاحتفال وفرح اللقاء.

لكن ســوق عُكاظ كانت ضرورة للعرب في ماضيهم، وهي ضرورة ليومهم ولغدهم.

بهذه النظرة كان إحياء السوق، وبهذا الطموح ستعود لنا سوق عُكاظ كل عام، بإذن الله.

سوق
عكاظ